النبوة والأنبياء
في ضوء القرآن

www.abulhasanalinadwi.org

الطبعة السابعة
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٦٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

www.abulhasanalinadwi.org

النبوة والأنبياء

في ضوء القرآن

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه، وأشرف أنبيائه، وخاتم رسله، محمد، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيسر المؤلف ويسعده أن يقدم للطبعة الرابعة لهذا الكتاب؛ الذي هو من أحب كتبه إليه؛ لجلال موضوعه وخطره، واتصاله بالجماعة؛ التي هي أحب خلق الله إلى الله، وعلى دعوتها وجهادها مدار سعادة الإنسانية؛ وفلاحها ونجاتها.

وقد تأخرت هذه الطبعة لأسباب قاسرة، منها عدم تفرغ المؤلف للنظر في الكتاب وتناوله بالزيادة والتنقيح، وكان من أهم الفصول التي كان المؤلف يود ضمها إلى الكتاب الفصل الذي يراه القارئ في آخر هذا الكتاب بعنوان (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، آخر الرسل وخاتم النبيين)، وكان تجرد الكتاب من هذا الفصل الذي هو في صميم الموضوع وإكمال له نقصاً كبيراً، وكان المؤلف قد أجَّله لوقت آخر يتفرغ فيه للبحث في هذا الموضوع وإيفائه حقه من الدراسة والتحليل والبحث المقارن.

وقد أثار بعض المغرضين في الزمن الأخير حوله نقعاً، وجعلوه من القضايا التي تحتاج إلى عرض جديد وإقناع مزيد بعد ما كانت قضية مسلَّمة بديهة، وقد كان المؤلف يشعر بمسؤوليته في هذا المجال العلمي، ويشعر برغبة قوية في الإسهام في هذا الموضوع مع كثرة ما كتب فيه في أوائل هذا القرن ومنتصفه.

وقد كان من الممكن أن يتأجل ذلك لوقت آخر، ولكن القضية دخلت في

www.abulhasanalinadwi.org

وجهلها لقيمتها وفضلها على الحياة والمدنية والعقل الإنساني، وشدة حاجة الإنسانية في جميع أدوارها إلى قيادتها. وكذلك غفلتها عن سِيَر الأنبياء والرسل وطبائعهم وأخلاقهم.

جاءت هذه الدعوة الكريمة من جهة كريمة، فأثارت هذا الشعور الكامن، وهيأت الفرصة المناسبة والدوافع النفسية القوية للتفرغ لهذا الموضوع؛ الذي لولا هذه الدعوة ولولا هذا الدافع القريب لتأجل إلى وقت آخر، كما تتأجل مواضيع أخرى تتغلب عليها وتَشغَل عنها حاجات مؤقتة أو أعمال رتيبة؛ تملأ فراغ الوقت وتشغل الخاطر، ورأيت أن خير مكان للحديث عن هذا الموضوع الجليل هو المدينة المنورة؛ التي حصل فيها آخر اتصال السماء بالأرض؛ لهداية البشرية عن طريق الوحي والنبوة.

وكتبت أكثر هذه المحاضرات في رمضان (١٣٨٢هـ) في قريتي الصغيرة[١] المنعزلة البعيدة عن كل مكتبة، واعتمدت فيها على القرآن الكريم، وأسستها على دراسته والتدبر فيه، وكنت أطلب أحياناً بعض المصادر التي أنقل منها بعض العبارات ـ شرحاً لفكرة أو تأييداً لقول ـ من مكتبة ندوة العلماء العظيمة في لكهنؤ، وجاءت ست محاضرات، لكل محاضرة عنوان خاص، وزدت إليها شيئاً يسيراً.

وصلتُ إلى المدينة المنورة في آخر شوال (عام ١٣٨٢هـ)، وبدأتُ المحاضرات في ذي القعدة، وكانت تلقى مرتين في الأسبوع في قاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية بعد صلاة العشاء، يمهِّد لها الأستاذ عطية محمد سالم؛ مدير الشؤون التعليمية في الجامعة[٢] ويعلِّق عليها فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؛ نائب رئيس الجامعة، ويحضرها ـ غير الطلبة ـ عدد من أعيان المدينة ورجال الثقافة وأساتذة الجامعة.

وها نحن أولاء ننشر هذه المحاضرات مجموعة في كتاب، لا نزعم أنها

---

(١) زاوية جدنا الكبير الشيخ علم الله الحسني النقشبندي في راي بريلي.
(٢) نائب رئيس القضاة بالمدينة المنورة الآن.

www.abulhasanalinadwi.org

بحوث مبتكرة أو فتح جديد في العلم والتحقيق، ولكنها إنارة فكر، وإثارة شعور، وخطوط عريضة لبحثٍ أكثر تركيزاً، وكتابٍ أوسع مادة.

وقد تعمدت الأسلوب الأدبي والاجتماعي الخفيف، وتجنبت أسلوب علم الكلام والعقائد العميق الثقيل، ولكن رغم ذلك قد احتوت على حقائق وإشارات تطلب التفكير العميق، وتستدعي البحث الدقيق في المجتمع الإسلامي المعاصر؛ الذي هـو في طور انتقال وتصميم، ويواجه صراعـاً عنيفـاً بين القيم والمفاهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)
أبو الحسن علي الحسني الندوي
لخمس خلون من محرم الحرام
١٣٨٣هـ

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الأولى

النبـوّة
حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنية

حديث من وحي المكان:

سادتي: إن أليق حديث بهذا المكان الذي نجتمع فيه، حديث عن النبوة: حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنية، وعن السادة الذين أكرمهم الله بها، وعن عظيم منزلتهم عند الله، وكبير فضلهم على الخلق، وعميـق أثـرهم في الحياة، وعن إمامهم وخاتمهم؛ الذي خصه الله بالرسالة الأخيرة والنبوة العامة الدائمة، والإمامة الخالدة؛ والشريعة الباقية، والكتاب المحفوظ، وحصر سعادة الإنسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الإيمان به واتباعه، وآثر هذا البلد الطيب بأن يكون مهجره ومثواه الأخير، وهنا حصل آخر اتصال السماء بالأرض للوحي والرسالة.

وعلى من يُمنح فرصة الحديث في هذا المكان الكريم، وتساق إليه هذه الكرامة، أن يتقي الله، ويستحيي أن يكون له حديث آخر غير هذا الحديث؛ الذي هو من وحي المكان، وفيض الإيمان، واستجابة لشعور الحسن والإحسان.

ولمـا نـزلنـا منـزلاً طلّـه النـدى ... أنيقـاً وبستـانـاً مـن النـور حـاليـاً
أجـدَّ لنـا طيـب المكـان وحسنـه ... منـى، فتمنينـا، فكنـت الأمـانيـا

مهمة الجامعة الأساسية:

ومهمة كل مدرسة تقوم في الإسلام ـ فضلاً عن أن تقوم في مدينة الرسول ﷺ ـ أن تُعنى قبل كل شيء بفهم نعمة النبوة؛ التي ما أنزل الله نعمة أعظم منها، وتُعنى

www.abulhasanalinadwi.org

بقدرها وشكرها، وتجتهد أن تكون من أنصارها ودُعاتها، وأن تنضم إلى معسكرها ولوائها في معترك الحياة؛ الذي انتشرت فيه ألوية الجاهلية، ورايات الردة والثورة، وأن تنتصر لها في مجالات الحياة كلها؛ من فكرية واعتقادية، إلى عملية وتطبيقية، ومن خُلُقية واجتماعية، إلى مدنية وسياسية، وأن يكون شعار أبنائها ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى إيثار النبوة ومنهاجها على كل فلسفة ومنهاج، وعلى كل منحىً وطريق، وعلى كل أسلوب من التفكير، وعلى كل لون من الحياة، وطراز من المدنية وقسم من أقسام المجتمعات البشرية.

إن هذه المهمة الأساسية هي أهم وأقدم من دراسة جميع العلوم والمواد التي تُعنى المدارس والجامعات الإسلامية بدراستها والتوسع فيها، ومن الشعارات التي تدين بها وتهتف، فإن المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ولا تزال بين الجاهلية والنبوّة ـ التي يمثلها الإسلام في هذا الزمان ـ وكل معركة غيرها معركة شكلية أو معركة داخلية، كما قد يتقاتل أفراد أسرة واحدة على شيء تافه، أو كما قد يتصارع الأطفال؛ لقصر نظرهم، أما المعركة المبدئية الدائمة فهي معركة الجاهلية والنبوة.

لذلك أيضاً كان هذا الحديث أولى بأن يكون الحديث الأول في الجامعة الإسلامية؛ التي تقوم في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ظئر الإسلام، ومأرز الإيمان، ومهبط الوحي، ونهاية المطاف في رحلة النبوة الطويلة وتاريخها السَّامي.

حاجة العصر إلى هذا الحديث:

لقد اشتدت الحاجة إلى هذا الحديث في كل مكان، وفي كل مجمع علمي، وفي كل جامعة كبيرة، اشتدت الحاجة إليه في جامعات أوروبا وفي ندواتها العلمية، وفي هيئة الأمم، وفي منظمة الثقافة العالمية، فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة ـ مع تملُّكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء ـ إلا بثورة قادتها على تعليمات النبوة والأنبياء، وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، واستغنائهم ـ وبالأصح استكبارهم ـ عمَّا

www.abulhasanalinadwi.org

أكرم الله به النبي العربي الأمي، وقولهم بلسان حال أو مقال: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟! أأمي جاء يعلمنا؟! أفقير يحاول إسعادنا؟! أبدوي يريد أن يمدننا؟!.

ولكننا إذا عجزنا بسوء الحظ ـ أيها السادة ـ أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث في جامعات أوروبا وأمريكا وفي جامعات آسيا المدنية، فلا يجوز أن نعجز عنه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكانت المدينة دائماً حقل النواة الكريمة، والبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، وتقول كلمتها فيردد صداها العالم.

النظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن:

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ إلى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة إلا في دائرة ضيقة محدودة من العقائد، ولعلم التوحيد بعض العذر في وضعه العلمي المحدود ورسالته التعليمية الخاصة. إذن يجب علينا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله الحكيم؛ لنعرف مداها وآفاقها الواسعة، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين السِّير وتشكيل المجتمعات، وقيادتها للمدنيات، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة في كل شيء، موازية للجاهلية، مقابلة لها على طول الخط.

حديث أثير حبيب:

إننا نقرأ القرآن لهذا الغرض، فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون، وهي أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالإطلاق، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة، ويفيض بالبِشْر، وينم عن الحب والإيثار، وكأنه حديث أثير حبيب عن أثير حبيب، فليتَّسع وليتشعَّب وليطل وليتنوّع، ولا يتوقف ولا ينقطع، وكل من رزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب، استلذَّ بهذا الحديث وتذوَّق هذا الأسلوب.

www.abulhasanalinadwi.org

اقرؤوا معي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

واقرؤوا معي كذلك قوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٩].

صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية:

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء والاجتباء، وطوراً بالحب والرضا، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعملية، كلٌّ يدل على أنهم صفوة الخلق، والمثل الكامل للإنسانية، ومِنْ أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله، ودعوة الخلق إلى الله ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فيقول عن إبراهيم: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ويقول: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، ويقول: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١١]، ويقول: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]، ويقول عن إسماعيل: ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥]،

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول عن موسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، ويقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، ويقول: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ويقول عن داود: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة صٓ: ١٧]، ويقول عن ابنه سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة صٓ: ٣٠]، وكذلك يقول عن النبي أيوب، ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاص وإيثار، وحب وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة صٓ: ٤٥ ـ ٤٨].

وقد استرسلت في هذا الحديث ـ والحديث لذيذ ـ مع معرفتي أنكم تقرؤون القرآن وتدرسونه دراسة علمية، وليس ما أتلوه عليكم جديداً عليكم أو غريباً عنكم، وإنما فعلت ذلك لأستحضر لأذهانكم منزلة الأنبياء عند الله ومقامهم الرفيع الحبيب ولهج القرآن بذكرهم، ووصفهم بأفضل الصفات وأزكى النعوت، وأكرم الأخلاق، وأشرف السجايا، وأغنى المواهب.

تصوير النبوة والمثل الحكيم:

ما مركز النبوة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد ـ في استقاء معلوماتها وقضاء أغراضها ـ غالباً على الحواس الإنسانية والعقل الموهوب، وتجد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء؟ وما هي ميزة الأنبياء بين جماعات العلماء وطوائف العقلاء؟ ولماذا لهم الحق أن يتحدثوا ـ هم وحدهم ـ عن أشياء، ويتقدموا بأنباء لا تتناولها الحواس القوية والعقول النافذة، وهم جميعاً أبناء بيئة واحدة، وواقفون على صعيد واحد؟ لماذا يرون ما لا يراه العماليق من أقرانهم، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم، ثم يأتي ذلك مثل فلق الصبح، وتتحقق نبواتهم؟

هذا سؤال طبيعي ساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة، وكان لا بد من مواجهته يوم أُكرم رسول الله ﷺ بالنبوة، وأُمر بالإنذار وتبليغ الرسالة، وكان

www.abulhasanalinadwi.org

الموقف الذي وقفه خاتم الرسل ﷺ من هذه المشكلة معجزة كبيرة من معجزاته الخالدة في الحكمة والدعوة والحجة والبيان.

عاشت الأمة العربية ـ وسكان هذا الوادي بصفة خاصة ـ مدة طويلة بعيدة عن المفاهيم الدقيقة، والمصطلحات العلمية، والبحوث اللاهوتية، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمها وسرعة إدراكها، وحبها وخضوعها للواقع، وعلى ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز النبوة والنبي في هذه الحياة، وتبرير حقه في الإنذار والإنباء، ومخالفة المألوف المعروف المُشاهد بالعيان، والإخبار بما لايراه الإنسان، فكان أبلغ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت.

وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ، وجميع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمة المقدسة الدقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة والتكلف، والاستعارة والاستيراد، ويكوِّنون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود.

لم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه، فما هو السبيل إلى (حشر) سكان الوادي إلى مكان مخصوص في زمن مخصوص، وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم وملذاتهم، ويَخِفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟.

كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب وتقاليدهم وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم، فاستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لاغاية أفضل منها.

اعتاد العرب إذا أحس أحد منهم بخطر، أو بعدوٍّ يريد أن يفاجئ ويأخذ القوم على غرتهم، أو بعدوٍّ كامن قاعد بالمرصاد، قد غفل عنه أهل البلاد، أن يرتقي أحدهم قمة جبل أو ربوة ويصرخ بأعلى صوته: (يا صباحاه) فيفزع القوم، ويأخذون عدتهم، ويخرجون على بكرة أبيهم؛ لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم.

www.abulhasanalinadwi.org

وما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذّاتهم؟ وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم؟.

عدو يقتل منهم الكثير، وينهب أموالهم، ويستاق إبلهم وماشيتهم، ويُلحق بهم الأضرار.

هانت هذه الأخطار والأضرار - على ضخامتها وواقعيتها - في عيون الأنبياء والرسل؛ الذين عرفوا خطر الجهل لصانع هذا الكون ومدبره وصفاته الحقيقية وحقوقه، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي، وضرر المعاصي والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي «يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف»[1]، فرأى هذا العدو، الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم، أضر وأفتك من كل عدو من الخارج، وإن هذا الخطر - الذي نبع وانبثق من داخلهم - أعظم من كل خطر عرفوه في حياتهم الجاهلية الطويلة، وفي مجتمعهم العربي القَبَلي، وأن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة، ومن كل جيش محارب، وأن أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر؛ الذي لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب في الأرض الفساد.

فخرج ﷺ وصعد على جبل الصفا - وهو أقرب الجبال إليهم - ونادى بأعلى صوته: «يا صباحاه» وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة، وأنه أليق وضع لهذا الإنذار البليغ، والصيحة المفزعة.

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة، تخرج من فم أصدق رجل عرفوه في بلدهم، وسموه (الصادق الأمين)، وفهموا معناها ومطالبها، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث؛ فلم يتأخروا في تلبية هذا النداء «فاجتمع

---

(١) هذا الوصف للمجتمع الجاهلي العربي، الذي كانت فيه بعثة رسول الله ﷺ، مأخوذ من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص٣٣٦، طبع الحلبي) وفي الأصل: كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام... إلخ.

www.abulhasanalinadwi.org

الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله»[1].

فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»[2].

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ، ووجَّه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق، ولم يألَفوا التعمق والتدقيق، ولكنهم ـ كما قلت ـ كانوا واقعيين عمليين، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك، فاستعرضوا الواقع واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير، واستعرضوا وضعه الطبيعي.

رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق والأمانة، والنصيحة وحب الخير، قد وقف على جبل يرى ما أمامه وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل، فعرفوا من غير شك وتأمل طويل، أن له الحق أن يتحدث عما في السفح المقابل من عدو رابض وخطر كامن، وليس لهم حق ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذبوه وينفوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة؛ فقد فرق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحق الشهادة ما لم يعطهم.

وكانوا عقلاء منصفين، شجعاناً صادقين فقالوا: (نعم)!.

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصه الله بها، وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها. وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق، ووضعهم الشاذ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوّة يطلون منها على الجانبين، الجانب الحسي بحكم النبوة التي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٣٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

www.abulhasanalinadwi.org

يكرمهم الله بها، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وليس لأذكى إنسان، وأعظم عالِم، وأكبر عاقل أن يكذبهم وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة، ولا يرى ما يرونه، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يُكذِّب من قام على قمته، وأخبر بما وراء الجبل، وتحدث عما وراء الأكمه.

فإذا حاجَّهم وخاصمهم أسير لحسه قالوا محتجين مستغربين: ﴿أَتُحَآجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] وكان العرب الأميون أعقل ـ في هذه المرحلة البدائية ـ من الفلاسفة والحكماء؛ الذين كذبوا أخبار الرسل، وشكُّوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

ولما تمت هذه المرحلة الطبعية العقلية التي كان لا بد منها، تقدم الرسول ﷺ خطوة ثانية ودخل في المرحلة الثانية، المرحلة النهائية.

فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها، والعقائد التي يدينون بها، والأصنام التي يعكفون عليها، والعادات الظالمة والأخلاق الجاهلية التي يتمسكون بها، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها، لا إيمان، ولا علم، ولا عدل، ولا تقوى.

إن طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع، والمعيشة الضنك، والقلق النفسي، والعذاب الداخلي في هذه الحياة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغر أمامه كل عذاب وألم

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٧] ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ [سورة فصلت: ١٦].

لقد اطّلع العلماء والفاحصون على خواص الأدوية، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات، وكوَّنوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس، وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق، صحيحها وسقيمها وصالحها وفاسدها وما تجر وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا، وثواب وعقاب، وجنة ونار في الآخرة، وخصهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العالم من حشر ونشر، وإنعام وعذاب، ونعيم وجحيم.

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النبوة يشرفون منها ـ بقدر ما يريد الله ـ على عالم الغيب والشهادة، ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد، وما يكمن لها من خطر وضرر، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً، وحباً وإخلاصاً، فإذا نازع منازع هذا الحق الطبيعي العقلي وهذه البداهة، وشك أو شكك في مركزهم قالوا في نصيحة وإخلاص، وتألم وإشفاق:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة:

لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة؛ التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقل بها العقل، ولا يغني فيها الذكاء، ولا تكفي

www.abulhasanalinadwi.org

سلامة الفطرة وحدة الذهن والإغراق في القياس، والغنى في التجارب، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة، وهم أهل الصدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها، الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة، والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهي سورة الصافات، وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء، فقال في آخر السورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض، فلما نزَّه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسلَّم وأثنى عليهم؛ لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصادق، وكانت بعثتهم منَّة على الخلق، ونعمة على الإنسانية، ومن مقتضايات الربوبية الرحيمة الحكيمة، فختم كل ذلك بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢].

ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها:

إذن قد ضل وتعب وجاهد في غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى، وما بينه وبين هذا العالم من صلة وكيفية إحاطته به، وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم في بعض مجالات علمية، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٦٦]

www.abulhasanalinadwi.org

وهذا سر ضلال الفلسفة الإغريقية الإلـٰهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرَّهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغني، وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة، والإقليدس والفلسفة الطبعية، والنجوم والفلكيات، فخاضوا في الإلـٰهيات وفي موضوع الذات والصفات، والخَلْق والإبداع، فجاؤوا بالسخيف المرذول، وبالمتهافت المتساقط، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله:

«ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدِلَّ على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات لقيل إنها تُرَّهات، لا تفيد غلبات الظنون»[1].

وقال في موضع آخر: **«لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟»**[2].

وكذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عليه يقول معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء: **«ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً، والباطل الذي يُعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلام فيه تلبيس وتدليس»**[3].

وحق عليهم قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

---

(١) تهافت الفلاسفة، ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٤.

(٣) منهاج السنة: ٣/ ٢٧٢ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (في الحاشية).

www.abulhasanalinadwi.org

عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي :

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية ـ مع الأسف ـ التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية؛ التي تتعدى حدودها ولا تعرف قدرها، فجاءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات، وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل، كأنهم في معمل كيماوي. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي :

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هذا الكون، ومدبّر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى، وهذا هو العلم الذي يستحق أن يُسمى (علم النجاة) والأنبياء مع سمو مداركهم، وصفاء حسهم وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم، ولا يزعمون لهم فيها كعباً عالياً ولا اليد الطولى.

إنما ينقطعون ويتخصصون لما بُعثوا له وأُمروا به وتوقفت عليه سعادة البشرية، ويَكِلون هذه العلوم إلى أصحابها.

مصير الأمم المتمدِّنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء :

وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها، في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء وينفردون به بين الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك

www.abulhasanalinadwi.org

الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الأكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم ـ مهما علا كعبهم في العلم والمدنية ـ جهالاً أميين وفقراء مفلسين، وأطفالاً صغاراً. وكانت الأمم على خطر ـ رغم كل فتوحها العلمية وازدهار المدنية ـ إذا جهلته أو رفضته، وقد وقعت أمم متمدنة راقية غنية في العلوم والآداب التي يُضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية فريسةَ الإنكار والاستكبار، والإعجاب بنفسها، والإدلال بعلومها وصنائعها، ونظرت إلى ما جاء به نبي عصرهم بعين الازدراء والاحتقار، وزهدت فيه واستصغرته، فذهبت ضحية هذا الغرور، وهذه السفاهة المصورة بالذكاء، وقصور النظر الملقب حينئذٍ ببعد النظر والنقد العلمي، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا.

مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم:

إن الفرق الواضح الذي بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء أيها الإخوان، إنما يتجلى بوضوح في قصة لعلكم سمعتموها، ولكن لعلكم لم تطبقوها على هذا الفرق، ولم تستخرجوا منها هذه الحكمة الرائعة، وكم ضاعت أمثالٌ حكيمة وقصص ذات مغزى عميق، وإليكم معذرتي فإن القصة تتصل بطائفتكم معشر التلاميذ والطلبة.

يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة في البحر أو للوصول إلى البر، وكان في النفس نشاط وفي الوقت سعة، وكان الملاح المجدف الأمي خير موضوع للدعابة والتنادر، وخير وسيلة للتلهّي وترويح النفس، وخاطبه تلميذ ذكي جريء وقال: يا عم ماذا درست من العلوم؟ قال: ولا شيء يا عزيزي. قال: أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟ قال: كلا ولا سمعت بها! وتكلم أحد زملائه، وقال: ولكنك لا بد درست علم الأقليدس والجبر والمقابلة! قال: وهذا أغرب، وتصدقون أني أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة، وتكلم ثالث (شاطر) فقال: ولكني متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ؟ فقال: وهل هما اسمان لبلدين أو عَلَمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة وعلا

www.abulhasanalinadwi.org

صوتهم بالقهقهة، وقال: ما سِنُّك يا عم؟ قال: أنا في الأربعين من سني! قالوا: لقد ضيَّعت نصف عمرك يا عمنا، وسكت الملاح الأمي على غصص ومضض وبقي ينتظر دوره، والزمان دوار.

وهاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق، وجاء دور الملاح الأمي فقال في هدوء ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية. ويتوسعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم.

ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها، قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قَدَّر الله ـ كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به، هنالك ضحك الملاح وقال: إذا كنت قد ضيعت نصف عمري؛ فقد أتلفتم عمركم كله؛ لأن هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد، هو علم السباحة الذي تجهلونه.

هذه قصة الأمم المتمدنة الراقية التي كانت دائرة معارف أو موسوعة في العلوم والآداب، وكانت زعيمة العالم كله في كل ما أنتجه البشر وتوصلوا إليه في العلوم والحكمة، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودَعة فيه، ولكنها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل إلى الخالق ويعرِّف به، والذي تنال به النجاة وهو بر السلام والساحل المقصود، هو الذي يضبط الأعمال والرغبات، ويقهر النزوات والشهوات، ويُصلح الأخلاق ويهذب النفوس، ويردع عن الشر ويدفع إلى الخير، ويُلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها، ويحمل الإنسان على التهيؤ للمصير والاستعداد للآخرة، ويخفف من غلواء الأنانية وحب الذات، والتكالب على حطام الدنيا، ويلهم الاقتصاد والسداد،

www.abulhasanalinadwi.org

ويمنعه من الجهاد في غير جهاد.

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غلب عليها الزهو والتيه، واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها، الذين لم يشتهروا بامتياز في علوم من العلوم السائدة فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول ﷺ:

وهذه قصة كل أمة بلغت شأواً بعيداً في العلم والمدنية، والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم ﷺ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار من الإفادة من العلم الغزير الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، والتمسك بأهدابه، والسير في ركابه، وقصة كل أمة معاصرة تمكنها الإفادة من هذا الدين الخالد ومن هذا النور الوضاء، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء هذا الاستكبار ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء في تعفن حضارتها، وانهيار مدنيتها.

الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم:

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية في الإعراض عن هذه التعليمات، وهذا العلم الغزير الموجود، والزهد في الاستفادة منه، والتهالك على الحضارة الغربية والقيم المادية والأوضاع الجاهلية والفلسفات القومية أو الاشتراكية أغرب، وهي على خطر عظيم لا يدفعه شيء، ولا تزال مُعاقَبة بالفُرقة والاختلاف، والفوضى والثورات، والتحاسد والتباغض، وعدم التعاون والاتحاد، وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو.

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة:

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرة، زاهية منظمة، يدخل فيها طوائف مختلفة ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ

www.abulhasanalinadwi.org

فتبحث في تاريخ هذه المدينة القديمة، من اختطَّها؟ ومتى قامت وعمرت وما مر بها من أحداث وما تعاقب عليها من حكومات؟.

وطائفة من علماء الآثار فتدرس الألواح والحفائر والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر، وتعيين عصورها وتهدي إلى الحضارات العتيقة المندثرة والمدارس الدارسة والعادات القديمة.

وطائفة صناعتها الجغرافية، فهي تدرس حدود هذه المدينة إلى أين تنتهي وموقعها الجغرافي، والجبال المحيطة بها المطلة عليها، والأنهار التي تخترقها ومن أين تنبع.

وطائفة هوايتها الأدب والشعر فيستهويها جمال الطبيعة الساحر، والمناظر الجميلة الفاتنة، والنسيم العليل البليل الذي يهبّ فيها صباحاً، والأزهار والرياحين التي تملأ حدائقها، فتهيج فيها الشاعرية، وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق، والمعاني اللطيفة، والأخيلة البديعة.

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل في اللغة التي يتكلم بها أهل المدينة؛ فيبحثون في نشوئها وارتقائها وتطورها وصلتها باللغات الأخرى، ويبحثون عن الحلقات المفقودة ويضعون معاجم، ويؤلفون كتباً في قواعد اللغة ويضبطون كتابتها.

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ولا يُنقص من شأنها، ولكل وجهة هو مولِّيها، ولكنها كلها على خطر لو لم تعرف من الذي يحكم هذه المدينة وما نظام الحكم، وما هي القوانين السائدة التي يجب عليها كلها ـ على اختلاف نزعاتها ـ الرضوخ لها، وما هي جباية الرعوية أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة، وما هي الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة، وما هي قواعد المرور وقوانين الإقامة في هذا البلد، إلى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشرعية في هذا البلد المنظم.

www.abulhasanalinadwi.org

مهمة الأنبياء في هذه المدينة :

وتدخل طائفة كاملة المواهب، صحيحة القوى، لطيفة الحس، رقيقة الذوق، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر، ولكن همها غير همّ هذه الطوائف كلها، ودعوتها ومنهاجها غير دعوة هذه الطوائف ومنهاجها، هي تهتدي ـ وبالأصح يهديها قيِّم هذا البلد ويأخذ بيدها ـ إلى مركز هذه المدينة والمدنية، وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذه المملكة المنظمة، تتصل به رأساً وتتلقى أحكامه وإشارته، وتبلِّغها إلى جميع الطوائف وتتوسط بين إدارة هذه المدينة وبين سكانها في التبليغ والدعوة، ولا شك أن جميع الطوائف مَدِينة لهذه الطائفة في حياتها واشتغالها بعلومها ومباحثها في هدوء وسلام، وأن هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر في كنف هذه المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة وتعيش في حمايتها وظلها، فلولا هذه المعرفة، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون، وألقي القبض عليها وزُجَّت في السجون، وتحولت علومها وجهودها وإنتاجها إلى الأوهام والظنون، أو على الأقل إلى العبث والمجون؛ فإن أساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذي يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبر والمنظم لهذه المدينة الواسعة والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة في هذا البلد، وهي المعرفة التي اختص بها الأنبياء واختصت بهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أهم الواجبات وأقدس المهمات :

وترون الخَطْب أعظم إذا عرفتم أن الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم فقط، إن الحاكم والمنظم لهذا البلد ـ في المثال الذي ضربناه ـ هو خالق هذا البلد الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وأفاض عليه الحياة، ورزقه كل ما يحتاج إليه ويصلحه، وهو الرازق، وهو الجواد، وهو الغفور الودود ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

إذن كانت معرفته بكل العقل، ومحبته بكل القلب. وطاعته بكل الجوارح وإجهاد النفس وبذل الوسع في إرضائه، والتقرب والتودد إليه أهم الواجبات، وأقدس المهمات ومقتضى الإنسانية والمروءة، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة.

وهذا مركز النبوة والأنبياء ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها. فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد، وكالعقل بالنسبة إلى العمل، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان، والدنيا بغيرهم ـ بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها ـ ظلام في ظلام ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية:

وليس الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلها وفي ازدهار المدنية كلها، وهي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساسي الأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات، ولم تزل الوسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائماً للإرادة الإنسانية والعزم القوي، إن الشأن كل الشأن في أن يريد الإنسان، وإن الخير كل الخير في أن يريد الإنسان الخير، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم، هم الذين كانوا ـ في كل عصر من عصور بعثتهم ـ يَبعثون في أمتهم وفي جيلهم طبيعة حب الخير وكراهة الشر، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الإنسانية طبيعة بهيمية أو سبعية ـ كما شاهدنا في الأمم التي قص الله علينا قصتها في القرآن ـ عالجوها وحولوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، ووجد ـ بتعليمهم الفاضل وجهادهم المتواصل ونسيانهم أنفسهم ولذّاتهم، ومجازفتهم بأرواحهم ومُهَجِهم وشرفهم ـ في هذه الأنعام السائمة

www.abulhasanalinadwi.org

والسباع الضارية، رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا، وتجمَّل بهم تاريخ الإنسانية، وفاقوا الملائكة في السمو وعلو المدارك، وعاشت بهم الإنسانية، وقام العدل، وانتصف الضعيف من القوي، ورعى الذئاب الغنم، وانتشرت الرحمة، وفاضت المحبة، ونفقت سوق الخير، وقامت سوق الجنة، وهبت نسائم الإيمان، وتحررت النفوس من ربقة الهوى والشهوات، وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

بقايا النبوة وآثار دعوتها وجهادها:

إن المدنيـة لا تدين لأي طائفـة من طوائف البشـر كما تدين لهذه الطائفة الربانية، إنها تدين لها في حياتها وبقائها، وفي شرفها وكرامتها، وفي اعتدالها وسدادها، فلولاهم صلى الله عليهم وسلم ـ لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتـراث حضاري وفلسـفة وحكمة. ولتحولت الأجيال البشـرية إلى قطعان من السائمة أو الوحوش، لا تعرف رباً، ولا تعرف ديناً ولا خُلقاً، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنى أسمى وغاية أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ.

إن كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلى وحي السـماء، وتعليمات الأنبيـاء، وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم، وإلى أصحـابهم وتابعيهم بإحسان، ومازال العالم ولايزال يأكل من رفدهم، ويمشي في ضوئهم، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثانية

سِمَاتُ النبوّة وَخصَائِصُ الأنبيَاءِ

إخواني: تحدثت إليكم في المحاضرة السابقة عن النبوة؛ حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنية، ومهمتها، ورسالتها في العالم. وأحب أن أتحدث إليكم في هذه الفرصة السعيدة عن طبيعة النبوة ومزاجها الخاص، وعن خصائص الأنبياء وعما يمتازون به عن قادة الفكر وزعماء الإصلاح من طوائف البشر.

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء:

لقد طغت الأساليب الصناعية والمناهج السياسية، وطرق القيادة والتنظيم الحديثة، ومناحي التربية والتعليم التي قامت ولا تزال بدورها في تعليم الأميين، ورفع مستوى الحياة، ومحاربة الفساد، وتحرير البلاد، وكلٌّ يذكر ويشكر، ولكنها استولت على العقول والنفوس، وانطبعت نفسية أصحابها وسيرتهم ومنابع قوتهم وعزائمهم، ودوافع أعمالهم وجهادهم، وأساليب تفكيرهم، ومقاييس نجاحهم في نفوس الناس، حتى أصبحوا لا يتصورون النبوة والأنبياء إلا من هذه الزاوية، ولا ينظرون إليهم إلا بهذا المنظار، وقد بدأ بعض الكتّاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة؛ مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته، أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلّفونها، ومناهج عملهم، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم، ويتجه بالفكر على دربٍ أقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها.

www.abulhasanalinadwi.org

الحاجة إلى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية:

لذلك اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسة عميقة حرة، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية، مجردة كذلك عمَّا قد تهواه قلوبنا وتطمح إليه نفوسنا، وقد يكون مما يستحسن ولا يستهجن وقد يكون شيئاً طبيعياً.

ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن، مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق، فالعصور تتبدل، ومناهج الفكر تتبدل، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل، وترتفع وتنخفض، وما حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق، فضلاً عن القرآن الذي هوكتاب سماوي خالد؛ فإنه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكر، ولا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل من رمل يتناثر وينبسط، وينضوي ويمتد، لا يصلح عليه البناء، ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ومن أساسه المحكم الأبدي.

الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين، والحكماء والمصلحين:

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أن العلم الذي ينشرونه بين الناس، والعقيدة التي يدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ويكرمون بها، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ والإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى، والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل ﷺ:

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله بعد ما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦]، ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل وعن مبدئها ومصدرها: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً أو تحويراً أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]، ونفى الله عنه المداهنة وعصمه عنها فقال: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي، إذا تجنَّى على الله أو قال ما لم يقله أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه، فقال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧].

وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصِّها، وبُرَّمتها وجملتها، فقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

www.abulhasanalinadwi.org

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم واستجابةً للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال؛ فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به: «در مع الدهر كيف هو دائر».

الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع:

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم، ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس وإقبال القلوب، ولا يراعون التدريج والتيسير، كلا! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة وحكمة الله البليغة وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ﷺ.

وقد قال القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقد قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، بشِّرا ولا تنفِّرا»[1]، وقال لأصحابه: «إنما بُعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين»[2]، وقد كان يرجئ تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٦٢٢.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٥.

www.abulhasanalinadwi.org

مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[2]، وعن جابر بن عبد الله: «كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف رجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: فتان فتان ثلاث مرار»[3]، و«عن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذٍ، ثم قال: «يا أيها الناس إن منكم منفِّرين، فمن أمّ منكم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[4]. والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[5]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة صٓ: ٢٠]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء، أما ما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ على اختلاف عصورهم ـ أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لا يعرفون تنازلاً، ولا يعرفون هوادة، ولا يرضون مساومة.

* * *

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢١٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) اقرأ الفصل النفيس (باب التيسير) في حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، ج١.

www.abulhasanalinadwi.org

إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له :

والسمة الثانية : هي أن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية : «أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام»[1].

وكل من له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطرارا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية، والإنكار عليها، ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون وإليها ينتهون، والقرآن تارة يقول بالإجمال : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وتارة يقول بالتفصيل فيسمي نبياً نبياً، ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد فقال : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود : ٢٥ ـ ٢٦]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هود : ٥٠]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود : ٦١]، ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

www.abulhasanalinadwi.org

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

أما إبراهيم فدعوته إلى توحيد الألوهية ونبذ الأصنام والأوثان أوضح وأصرح، ففي سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، وفي سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾، وفي سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وفيها: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وكذلك يوسف؛ فقد جاء في القرآن في موعظته البليغة الحكيمة في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ

www.abulhasanalinadwi.org

خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً[1] سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذي كان يدّعي أنه مظهر للشمس (الإلـٰه الأكبر) عند قدماء المصريين، فيقول: «أنا ربكم الأعلى»، وقد قال حين سمع دعوة موسى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقد سمَّى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر والرجس وقول الزور، وشنَّع عليه التشنيع الأعظم، فقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر:

إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التألُّه لغير الله وغاية التذلُّل له، والسجود والدعاء والاستغاثة والنذر والذبح له، هي الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراتها، وهي التي تثير غضب الله وغيرته، وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني، وتُهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٥]، تُهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من

---

(١) كلمة الأسماء تدل على أن معبوداتهم كانت أشخاصاً مقدسة موهومة، إما لا وجود لها أصلاً كما يوجد في نظام الشرك وعقائد المشركين كثيراً، وإما كان لها أصل ووجود ولكن ليس لها من الألوهية والربوبية نصيب، وكذلك قال هود لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وذِكْرُ الأسماء دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناماً بأسماء الماضين.

www.abulhasanalinadwi.org

الموجودات، إنها هي الجاهلية التي تخنق القُوى وتقتل المواهب وتقضي على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير، العليم القدير، الجواد الوهاب، الغفور الودود، والاستفادة من صفاته التي لا تُحد، وخزائنه التي لا تنفد.. إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير، العاجز الحقير، الذي لا يملك شيئاً: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٥].

فَهْمُ الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته:

هذه الوثنية (في دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء في كل عصورهم، وفي جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [سورة صٓ: ٥ ـ ٧] ومما لا يشك فيه عاقل دَرَسَ تاريخ العصر النبوي واطلع أخبار صحابة الرسول ﷺ، أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التي سردناها إلى هذه الوثنية السافرة، وعبادة الأصنام والأوثان، وتقديس الأشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم، والدعاء منهم والذبح والنذر لهم، والحلف بأسمائهم، والتقرب إلى الله بعبادتهم والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا تُرَد، وطلب النفع والضر، وكشف الكربة منهم، ولا يفهمون من معنى الإله، والرب، والعبادة، والدين، إلا هذه المفاهيم الدينية، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان.

www.abulhasanalinadwi.org

ما يجب أن يكون الركن الأساسي في الدعوات الدينية وشعار الدعاة في جميع العصور:

ولا يزال هذا هو الركن الأساسي في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة، وهو تراث النبوة الخالدة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وشعار جميع الدعاة إلى الله وجميع المصلحين المجاهدين.

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله، والتحاكم إلى غير الله، وقبول التشريع غير الإلهي، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله، وعلى أحكامه، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتي بعده، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره وأهميته، وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد، أو يساوي بينه وبين معاني الطاعة والحكم السياسية ويحكم عليها حكماً واحداً، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولّى عصرها وانقضى دورها، فإن هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم، وشك في خلود القرآن وأنه هو الكتاب الأخير الدائم، وشك في أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الإصلاح.

وصية للشباب والدعاة والكتاب:

أيها الشباب الأعزاء، ستتخرجون في هذه الجامعة دعاة مصلحين، وكتاباً مؤلِّفين، وقادة موجهين، فأريد أن أوصيكم وصية هي عصارة تجارب ودراسات طويلة، ولا تعرفون قيمتها وأهميتها إلا بعد التجربة الطويلة، إياكم أن تعطي كتاباتكم وعَرْضُكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرةً أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطوال في جهل متصل عن فهم هذا الدين الذي هو دين كل عصر وجيل، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية[1]؛ لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقي

---

(١) قد جاء في بعض الكتب التي نالت حظوة وقبولاً عند كثير من المثقفين، وعدد من العلماء والمفكرين، لبعض كبار الكتاب الإسلاميين ودعاة الإسلام في هذا العصر، =

www.abulhasanalinadwi.org

هذه المدة الطويلة لا يفهم على حقيقته وأنه بقي مطوياً على غرته، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يبقى ولا يُفهم ولا يُعمل به، وقد قال لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

= ما يفهم منه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل غابت عنهم روحه السامية، وفكرته المركزية لمجرد ما غشى بعض المصطلحات القرآنية الأساسية: (أمثال: الإله، والرب، والدين، والعبادة) من حجب الجهل، ويردون تاريخ هذا الخفاء والغموض إلى عصور قديمة في التاريخ الإسلامي، وقد تورطت فيه الأمة بشكل عام في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر، فجعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات وتلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادات منحصرة في معان ضيقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مشتبهة.

ولا يبعد أن يفهم منه القارئ الذي لم يتعمق في العلم، ولم يقوَ إيمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد ـ بجميع معاني الكلمة ـ وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام، والجهالة المطبقة أن القرآن قد بقي هذه المدة الطويلة ملتبساً على الأمة، أو على أكثر أفرادها، ومضت على قرون وأجيال ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التي يدور عليها هذا الكتاب، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته، إلا في العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتّاب الإسلاميين.

وهذا الفهم وإن بدا أمراً غير ذي خطر، ولكنه عميق الجذور بعيد العواقب في التفكير الإسلامي؛ لأنه يشكك في صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادي والدعوي، وفي فهم هذه الأمة لهذا الكتاب والعمل به في تاريخها الطويل، فإن الكتاب الذي لم يفهم حق الفهم في أطول مدة وأخصبها علماً وعملاً وكفاحاً، يشك في إبانته ووضوحه وإفادته، ويشك في كل ما يقال عنه ويفسر به في هذا العصر، ويفتح الباب للتوسع في تأويله ـ كما فعلت الباطنية في مختلف أشكالها ـ من غير أن يقوم على تلقي هذه الأمة لهذا الدين ومفاهيمه، والتوارث في فهمه، فضلاً عن أنه ينافي وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالإبانة والوضوح في غير ما موضع من القرآن، فقال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

www.abulhasanalinadwi.org

وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتّاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكري الدائم، والشجرة التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء، ولا يرجى منها الخير.

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعاني السياسية والمؤسسات السياسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم الحديثة والثقافات الحديثة[1]. وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم، ويريد أن يسود النظام الإسلامي ويقوم الحكم الإسلامي في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هذا التفريط والإفراط، ولاشك أنها غايات سامية يجب أن يجنِّدَ لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأقلامهم، ولكن يجب عليها كذلك أن لا يُخضِعوا القرآن لهذه الغاية، والنصوص الداعية إلى هذه الغايات، الحاثة عليها، الموجبة لها، وافرة كثيرة لايُحتاج معها إلى هذا التأويل.

* * *

عقيدة الآخرة والاهتمام بها في سيرة الأنبياء ودعوتهم:

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرهم هو التشديد على جانب الآخرة، واللهج بها، والإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً

---

(١) وكان من تأثير المؤسسات السياسية والتفكير السياسي المستولي على العقول والتعبير في هذا العصر استيلاء عظيماً، أن بدأ بعض الدعاة الإسلاميين والكتاب المرموقين يؤثرون في كتاباتهم المصطلحات السياسية التي اقترنت بها مفاهيم خاصة وانطباعات لا تنفك عنها، وزيادة على ذلك أنها تعبيرات محدودة قاصرة لا تفي بالغرض، ولا تعبر عن دعوة الأنبياء في أمانة وبلاغة، كـ(الانقلاب) و(الثورة) و(الديمقراطية) و(الاشتراكية) و(النظام)، فكل مفهوم قد نشأ وكمل في ظروف خاصة، وتحت عوامل خاصة، وكان التعبير الذي نطق به القرآن وجرى على لسان الشرع والدين أولى بالإيثار، وأبعد عن سوء الفهم، وطبع الدين بطابع خاص.

www.abulhasanalinadwi.org

يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثّل هولها وفزَعها: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٩١].

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أُبَّهته وسيادته، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر، أرقى مملكة وأخصب بلاد في ذلك العصر، وقد أقر الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة، وأقر عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف، وقد كان في ذلك ما يُرضي الطموح ويزهي عالي الهمة بعيد النظر، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً، فيقول شاكراً داعياً، راضياً وَجِلاً: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح:

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء، وللكفار العصاة من عقاب، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صَفْوَ عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرُّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون

www.abulhasanalinadwi.org

ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح ـ وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]، ويقول عن هود ـ وهو من أقدم الأنبياء، وقد بُعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة ـ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥] ويقول عن شعيب ـ وقد بُعث في قوم لانَ لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب ـ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤][1].

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل:

وقد تعدّت هذه الفكرة، بقوة تأثيرهم، إلى أتباعهم والمؤمنين بهم، وتجلى لهم قصر مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها، وأنها الجد الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، فقال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠] وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى، لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

---

(١) قال في روح المعاني: «فالمراد عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال في الدنيا».

www.abulhasanalinadwi.org

مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة:

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حب العلوّ والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي، وقد جاء في القرآن: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، إنما يُطمِعُونهم في رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة والاستغفار يجلب رحمة الله، ويستدر الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] ويقول هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تتخلف عنهما كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة.

سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزهد وإيثار الآخرة على الدنيا:

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط، ودعوة لأمتهم فقط، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم، وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب معبراً عن جماعته كلها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة، قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة، وضَحَّوا بها في سبيل دعوتهم وفوّتوا الفرص، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون، وكانوا من (اللامعين) في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصِلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة، وعن ذلك عبَّر قوم صالح؛ إذ قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم، وقد

www.abulhasanalinadwi.org

قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩]، وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن، كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ﷺ على الرخاء وخفض العيش مع غيره.

ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ، معروفة في السيرة النبوية، تثير العجب وتسحر النفوس، وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور، وكان شعارها الدائم «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[1]، ودعاءهم المقبول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[2].

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية:

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها كضرورة خلقية أو كحاجة إصلاحية، لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، **والفرق بينهما أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقرير، وقانون مرسوم، وإن الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية**[3].

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) المرجع السابق.
(٣) للمؤلف في كتاب (تأملات في سورة الكهف).

www.abulhasanalinadwi.org

مطالبة بالإيمان بالغيب:

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم، ومن ملامحها البارزة أنها تشدد على الإيمان بالغيب[1]، وتجعله شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين، وشعاراً للمهتدين، وعلامة للمتقين، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥] وتطالب به في قوة وشدة، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام، ـ هو دين جميع الأنبياء ـ أن يُصدِّقوا بصفات الله العلية وقدرته الواسعة، وأفعاله العجيبة التي تتحدى العقل الضعيف، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً، ويصدِّقوا بكل ما جاء عن الرسل وحدهم، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله، ولم يصدقه الحس، ولم تألفه العقول، اعتماداً على إخبار الرسل وحده، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله واعتماداً على أن الله على كل شيء قدير، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء، وهو الخلاّق المبدع، فعّال لما يريد، لا يحتاج إلى الأسباب التي هو خلقها، ولا يتقيد بسننه التي هو سَنَّها، لقد خلق الأسباب، وسن السنن، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها، والحاكم عليها، وإنه لم يفلت منه زمامها، وهي لم تستقل بوجودها وإرادتها، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل، ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقد زخرت الكتب السماوية، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله، وبالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان

---

(١) قال العلاّمة أبو السعود في تفسيره: «الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يُدرك بواحد منها ابتداءً بطريق البداهة، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء».

www.abulhasanalinadwi.org

بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة، والاعتماد الكامل على صحه هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها، أما الإيمان الذي لم يقم إلاّ على الحس والتجربة، والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به، أو يؤوله تأويلاً يتفق مع ما أَلِفَه، ولذلك قال: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين، فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله، وصوَّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقبل ولا يصدَّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أُجري على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب، وما لا يقبل التعليل العقلي ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك، وخروج على قوانين اللغة العربية وجراءة على الله، وتَجَنٍّ على اللغة وأبنائها، ووقاحة شديدة[1]، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظُّلَّة على طائفة من بني إسرائيل، وحياتها بعد موتها، ومسخ فِرَق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلِمَهُ سليمان، وفهمه لحديث النمل، ومطاوعة الرياح له، وسيرها به غدوّها شهر ورواحها شهر، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب

---

(١) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان ومحمد علي اللاهوري.

www.abulhasanalinadwi.org

الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1] ومنه إلى السماء، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء.

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة، ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية، والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمس، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مقيد مغلول، وإيمان محدود مشروط، لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يُسمى إيماناً، إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق، وطاعة للحواس والتجارب ولا فضل فيه، ولا يختص بالدين، فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه، وما تؤدي إليه حواسه ويرشد إليه عقله.

وصاحب هذا الإيمان (الطبيعي) في عناء وبلاء مع الكتب السماوية، والأديان الإلهية، وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين[2]:

«رجل خشبة، لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي ورفع الخطى بحرِّيَّة وكثرة النقلات والاتجاهات»، وهو إما يلجأ إلى التحريف أو التأويل البعيد، وإما يضطر إلى الإنكار والإلحاد، بناء على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التي جاءت بها الرسل، ونطقت بها الكتب، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التي هي مبنية على استقراء محدود، فقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

أما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدق للرسل في كل ما جاؤوا به ونطقوا به، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام

---

(١) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

(٢) هو الشيخ جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور.

www.abulhasanalinadwi.org

ووئام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهد وفكر مرة ثم استراح، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدَّق الرسول وعصمته في ما يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ثم آمن واطمأن وصدّق بكل ما جاء به الرسول ﷺ، وصح به النقل في سهولة ويسر، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ﷺ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يُخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٧ ـ ٨].

وذكر نفسية الرجل الذي تعوّد أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله، الظاهر السطحي، وشهواته ومصالحه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

إن أدبنا الإسلامي ـ مع الأسف ـ ونظامنا التعليمي الديني، وأسلوب الدعوة قد قصَّر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة، وتساهل في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه، وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين ـ مع مالهم من فضل في عرض محاسن الإسلام، وتقريبه إلى الأذهان ـ إلى صياغة عقلية جديدة للدين، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة، فجنى ذلك، إلى حد ومن غير إرادة، على روح الإيمان بالغيب، واعتاد الشباب الإسلامي المثقف أن لا ينشط إلى للمألوف المقرر، والواقع المتكرر في الحياة الطبعية، أما ما شذ عنه وخرج عليه، واحتاج في تصديقه إلى إيمان أعمق وأوسع، واعتماد على صدق المخبِر،

www.abulhasanalinadwi.org

فإنه لا يقبله إلا على مضض وجهد، ولا ينشط له ولا يرحب به، ويرى في ذلك منافاة لما سمع وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم، ولا شك أن الإسلام كذلك، ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولكن العقل الإنساني طبقات ومستويات، فعقل البدوي ينكر مازخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية، وعقل العامي ينكر ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية، وهكذا، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها، ولا يكلف فوق طاقته، ويعجبني في ذلك كلمة لنابغة العرب، بل نابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران العلامة ابن خلدون، قال رحمه الله:

«ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفِّه رأيه في ذلك، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا؛ لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك؛ لأنه مِنْ طورٍ فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك

www.abulhasanalinadwi.org

لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلـٰهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»[1].

البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة:

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ البعد عن الأساليب الصناعية والتصنُّع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٧]. تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم جميعاً.

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسـلوب فطري غير ذي عوج، لايتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، وألمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية، ولايثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد.

وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد (حجة الله البالغة) يقول رحمه الله:

«ومن سـيرتهم ـ الأنبياء ـ أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، علم الكلام، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

www.abulhasanalinadwi.org

خُلقوا عليها، وعلومهم التي هي حاصلة عند غيرهم بأصل الخِلقة؛ وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وُجد فله في أصل الخلقة حد من الإدراك زائد على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادة جداً، وله علو لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء، أو برياضات شاقة تهيئ نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة».

«فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودَع فيهم بأصل الخلقة، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلّما يتفق وجودها، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يعرفوه منزهاً عن جميع الجهات، فإن ذلك كالممتنع بالإضافة إلى من يشتغل بالرياضات، ولم يخالط المعقولين مدة طويلة، ولم يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث».

«ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة؛ كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة، وعجائب النبات والحيوان، ومقادير سير الشمس والقمر، وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها، اللهم إلا كلمات يسيرة أَلِفَتْها أسماعهم وقَبِلَتها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله، على سبيل الاستطراد بكلامٍ إجمالي يسامح في مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات».

«ولهذا الأصل لما سألوا النبي ﷺ عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور، فقال: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وترى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم»[1].

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ٨٦، طبع المنيرية، القاهرة.

www.abulhasanalinadwi.org

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب:

«ومنها أن الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودَع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت لنفسه جهة فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الرحمن: ٥] وقال النبي ﷺ لامرأة سوداء: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: هي مؤمنة! ولم يكلِّفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة، وأشار بقوله: «القبلة ما بين المشرق والمغرب، إذا استقبل الكعبة» إلى وجه المسألة، وقال: الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون، والله أعلم»[1].

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزالي وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام، والفرق بينهما، قال رحمه الله:

«فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[2].

وقد قال الإمام الرازي، كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه:

«لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، ومن جرَّب تجربتي عرف مثل معرفتي»[3].

وقد أفضتُ في هذا الموضوع لبُعْد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها، ومنهاج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان، وفي حياتهم الخاصة وفي حياتهم مع الناس، وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ١٣، طبع المنيرية، القاهرة.
(٢) إلجام العوام عن علم الكلام ـ الطبعة الميمنية، ص٢٠.
(٣) كتاب النبوات لابن تيمية، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

www.abulhasanalinadwi.org

وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة، حتى صار الناس في غفلة بل واستهانة بطريق الأنبياء وسيرتهم، والتوى عليهم فهم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أسلوبه الحكيم، ولجؤوا إلى تأويلات وتكلفات، ولا تزال سيرة الأنبياء في الدعوة هي السيرة المثالية، ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطري البليغ الحكيم، الذي يقنع العقول ويفتح القلوب في كل عصر، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافي والدواء الشافي ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثالثة

أئِمّة الهُدَى وقادَة الإنسَانِيّةِ

عبث القادة والزعماء بالإنسانية:

لم يزل الجيل البشري في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء، أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرِّعين والحكماء، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس[1] يطويه وينشره، ويمده ويكوره، ويمزقه إذا شاء، ويحرقه إذا شاء؛ وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها، ومَلَكاتها ومواهبها، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة، فلم يتقوا الله فيها ولم يراعوا فيها حقاً ولا حرمة، ولا إلاً ولا ذمة، واتخذوها مطية لشهواتهم ونزعاتهم، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم، وقد جر عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال وسوء الفهم وسوء التعبير أحياناً، والشهوات التي ركبوا عليها، والنزعات والأنانية، الفردية والقومية، والعصبية الجنسية والوطنية، قد جرَّ كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاء طويلاً وويلاً عظيماً، وأفقد الثقة بقيادتهم، وشكَّك تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم وصحة معلوماتهم وحسن قصدهم وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم وإشرافهم، والتاريخ الإنساني مليء بهذه المآسي والمهازل، والمضحكات المبكيات، ولا تزال شعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين، يلعبون بها ويتداولونها كالكرة،

---

(١) مأخوذ من شعر البحتري:

إن الخطوب طوينني ونشرنني ... عبث الوليد بجانب القرطاس

www.abulhasanalinadwi.org

ويُجرون عليها عمليات وتجارب جديدة كثيرة، قد يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليل، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار من يتسلم القيادة منهم ويخلفهم، وقد يسجل عليها ذلك التاريخ وتشعر به الأجيال الآتية.

الحاجة إلى الأنبياء المعصومين عن الخطأ:

وشر هذه التجارب المخفقة والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، والتي تشكِّل الأخلاق الصحيحة وتكوِّن المدنية الصالحة، والعبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه والشرائع التي تنظِّم حياته، فالعثرة في ذلك لا تقال، والكسر في ذلك لا يجبر.

فمسَّت الحاجة إلى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء، مبرئين من كل طمع ومساومة وطلب مكافأة ومقابل وربح ماديّ، لاتتغلب عليهم الشهوات، ولاتؤثر فيهم النزعات، لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة، وإذا صدر منهم خطأ في الاجتهاد والتقدير، نبههم الله على ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه.

أمانة وإخلاص:

ولذلك تقرأ في سورة الشعراء، أن كل نبي يُبعث في أمته يؤكد لهم أمانته وإخلاصه، واقرؤوا معي الآيات التالية:

١ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

٢ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

www.abulhasanalinadwi.org

٣ ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٥].

٤ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

٥ ـ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠].

هذه الوحدة التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أمم مختلفة وفي عصور مختلفة ذات معنى عميق، وهو أن الأمانة وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله العليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى أسفل، إلى الأمة التي يبعث فيها النبي، هو الركن الأساسي في مفهوم النبوة والرسالة ونظامها، ولا أجمع لهذه المعاني ولا أبلغ من كلمة (الأمانة) في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلٰهية أن يوصف بها الرسول العربي ﷺ قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين.

وكذلك الإخلاص والنزاهة والبعد من كل طمع والزهد في كل منفعة شخصية أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد، وقد اتفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب هذا الداعية المخلص، الناصح الأمين، ولذلك قال صالح، في أسف واسغراب: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. وقال الموجه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢١].

وهذا هو المعنى الذي أكده موسى عليه السلام لفرعون فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ

www.abulhasanalinadwi.org

جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ [الأعراف: ١٠٤ـ ١٠٥].

أمانة وضمان للاتباع:

وقد كان في هذه (العصمة) والأمانة والنزاهة، التي اتصف به الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم في العقائد والشرائع، وأمان مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتباعهم.

حقيقة العصمة وطرقها:

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السبل ومقيمو الملل ـ يعني الأنبياء ـ سلام الله عليهم، يقول رحمه الله:

«ثم لابد لهذا العالم أن يُثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والضلال، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين: إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام؛ لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه، ويحتج عليهم ويفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذا السنن منها ووجوه منافعها، وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخّن أو المبرّد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن يكون عينه مَؤُوفة وأن يكون الإبصار على خلاف

www.abulhasanalinadwi.org

الواقع، وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية، فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر، ولفظ الأرض لذلك، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه مَلَكَة جبلية، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه، وعند الناس[1] إنما يكون بأن يصحّ عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يَشُكُّوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم، والماء الزلال عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور، أصابوا أم أخطؤوا والله أعلم»[2].

جديرون بالطاعة والاتباع:

إن هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم، وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة، وقد أفرغها الله في قالب من الاعتدال والسداد، وربَّاها فأحسن تربيتها، وأدّبها فأحسن تأديبها ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧] هي الجديرة الخليقة ـ بحكم العقل والذوق والمنطق ـ بالطاعة والاقتداء، والتقليد والاتباع، ولذلك قال الله تعالى بعدما ذكر جماعة من أنبيائه المكرّمين، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس، يكون إذا صح عندهم أن ما يدعو إليه حق... إلخ.

(٢) حجة الله البالغة (باب الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل): ١/ ٨٣ ـ ٨٤.

www.abulhasanalinadwi.org

محطُّ العناية والرضا:

لقد أحاطت العناية الإلـهية والقبول الرحماني بنفوس الأنبياء، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيـرة التي تعـودّها الناس، حتى إذا سـلكوا شِعباً ووادياً، وسلك الناس شِعباً ووادياً كان شِعْبهم وواديهم أحب إلى الله من شِعب الناس ووديهم، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه، وأصبح لهم شعاراً، وبهم خاصـاً محبة الله ورضاه، حتى أصبح تقليدهـم واتبـاعهم واتخـاذ شـاراتهم وشعائرهم، والتخلق بأخلاقهم، والتشبه بهم، أقرب الأسباب وأقرب الطرق وأيسرها بجلب محبة الله، وصار من اتبعهم وتشبه بهم من المحبوبين؛ فضلاً على أن يكون من المحبين، لأن المتشبه بالحبيب حبيب وبالبغيض بغيض، وأصبح ذلـك أصلاً من الأصول والقانـون الذي لا يتبدل ولا يتغير على مـر الزمـان، واختلاف المكان، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه، فقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع وحقيقة الشعائر:

وهذا السر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة وسنن الهدى، وتشيد بها وتحثُّ على الأخذ بها، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يُحدث انصباغاً بصبغتهم؛ وهي الصبغة التي يقول الله عنها: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة وخُلقاً على خُلق، ووضعاً على وضع، وهيئـة على هيئـة، وهذا سـر ما تتخذه الشريعة الإسلامية

www.abulhasanalinadwi.org

شعاراً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة وسنة موافقة للفطرة، وضده علامة للانحراف وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة، ولأهل الجاهلية والكفر، ولا فرق بينهما، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم، وفيه تشبه بهم، والثاني شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم، ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة، والنوم والعشرة والاختلاط، وهو باب واسع من أبواب السنَّة وفقه الدين.

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى وخُصَّت بالأعمال الفاضلة المستجادة؛ كالأكل والشرب والإشارة وتناول كل شيء ذي بال وإعطائه، وكل ما فيه إكرام، وخصت اليسرى بالاستبراء وكل ما فيه لوث وإهانة؟ وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه؟ وكثير من الأمم الجاهلية، وممن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يُفرِّق بينهما، ولا يلتزم هذا الأدب، ويضع إحداهما موضع الأخرى؟ لا سبب لذلك إلا أن الأنبياء عامة ـ ورسول الله ﷺ خاصة ـ كانوا يفعلون ذلك بإلهام من الله أو بسائق من فطرتهم السليمة؛ التي كانت دائماً على اتصال ومناسبة بما يرتضيه الله تعالى من الأخلاق والعادات والأوضاع، ولماذا كان التيمن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ومن شعائر الحضارة الإسلامية؟ لأنه كان من سُنَّة الأنبياء عليهم السلام ومن عادات الرسول ﷺ وذوقه؛ فعن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله، في طهوره وترجُّله وتنعُّله»[1].

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطهارة وخصال الفطرة التي نسبت في الحديث إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية

---

(١) صحيح البخاري.

www.abulhasanalinadwi.org

وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً، امتيازاً في الأساس، وفي الروح، وفي الأشكال والتفاصيل.

حضارة إبراهيمية محمدية:

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسَّسَة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله، والإنابة والرحمة على بني النوع، ورقة العاطفة. وقد سَرَتْ أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان رسول الله ﷺ وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي بَعَثَ فيها الروح، وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشد بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية.

خصائص هذه الحضارة وسماتها:

«إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لاتعرف الوثنية والشرك، ولاتسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر همه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

إنها لاتعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب. إنها دعوة لم تزل عقيدتها: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتمييز بين الألوان

www.abulhasanalinadwi.org

والأوطان «فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣][1]، وقد قال خاتم الرسل ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[2]، وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[3].

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات المضلة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية، وخيراتها المنتشرة الباقية.

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله، وقامت على أساس الإيمان فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني»[4].

دعوة القرآن إلى اتِّباع الأنبياء وحثّه على تقليدهم:

إنّ القرآن يدعو إلى اتباع الأنبياء، والأخذ بسيرتهم، والسير على منهجهم العام في الحياة والتشبه بهم ما أمكن، فيقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويأمر

---

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رسالة (ملة إبراهيم وحضارة الإسلام) للمؤلف بتغير يسير، ص١٣ ـ ١٥.

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين بأن يدعو دائماً بقولهم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، ولا شك أن في مقدمة هؤلاء المُنْعَمِ عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، وجعل هذا الدعاء في صلب الصلاة، وكلما كان الإنسان أتبع لسننه، وأكثر تخلقاً بأخلاقه وأشبه به هدياً ودلاً وسمتاً كان أقرب إلى الله وأعلى منزلة عنده.

الإجلال المنبعث من أعماق القلب والحب العاطفي:

والقرآن يطلب للأنبياء الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والتوقير والتبجيل العميق، والحب العاطفي، ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحب وإجلال، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود وزعماء الأحزاب، ولا يكتفي بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام، فقال: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩]، وقال: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم، ونهى عن كل ما يحط مكانتهم ويجرح كرامتهم، ويهون شأنهم ويفقد مهابتهم، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٣]، وقال: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]، ولذلك حرَّم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حب الرسول وإيثاره على النفس والأهل والولد، فقد جاء في الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»، وكذلك: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» الحديث.

www.abulhasanalinadwi.org

تأثير عاطفة الحب وسر تفاني الصحابة في طاعة الرسول ﷺ:

لأن الطاعة الكاملة المخلصة، والتخلق بأخلاق الرسول ﷺ والانصباغ بصبغته وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذلك المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته، لا يتأتى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحب العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه؛ ولذلك قال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم إليها وأنشطهم فيها، وأصبرهم عليها، ولهم في ذلك القدح المعلّى والنصيب الأوفر إلى يوم القيامة، ومنهم أبو بكر الصدّيق الذي كان رسول الله ﷺ أكرم عليه وأحب إليه من نفسه، وحياته وصحته أعز عليه من حياته وصحته، وقد ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطنه حتى ما يُعْرَف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب لا يَشُكُّون في موته، ولما تكلم آخر النهار قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ ولما قيل له إنه سالم صالح قال: إن لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ»[1].

ومنهم المرأة الأنصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة أعز أقاربها: أبيها وأخيها وزوجها يوم أُحد، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل»[2].

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، سمع أن والده قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها

---

(١) البداية والنهاية: ٣/ ٣٠.

(٢) ابن إسحاق والبيهقي.

www.abulhasanalinadwi.org

الأذل؟ أما والله لتعرفنّ العزة لك أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بأذنٍ من الله ورسوله، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ يأمره بأن يخلي سبيله[1].

ولذلك كله استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفهم وراحاتهم، وهانت عليهم الحياة، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الإخوان، والشهادة في سبيل الله، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر: إنَّ أمرنا تَبَعٌ لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك[2].

نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلامي اليوم وتأثير ذلك في الحياة:

وماضعف العالم الإسلامي في العمل بالشريعة اليوم والتكاسل في الطاعات والابتعاد عن كل ما يشق على النفس، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتم به القرآن كثيراً، وضعف عاطفة الحب أو فقدانها، العاطفة التي كانت ولاتزال مصدر قوة لا نظير لها ومرد عجائب ومعجزات في التاريخ، وهو فراغ لا يملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام، وخسارة لا تعوَّض بشيء.

لا فلاح لأمة بعث فيها النبي إلا في اتّباعه وإيثاره:

وفي الأخير فإن مصير الأمم التي يبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوط باتِّباعهم والانقياد لهم، والاجتماع تحت رايتهم، والتمسك بأهدابهم والسير في ركابهم بعز عزيز وذل ذليل، فلا تفلح أمة مهما أوتيت من الحَوْل والطَّوْل والذكاء والوسائل، ومهما تقدَّم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال، إلا باتباع هذا النبي والحب له والانتصار لدعوته، رضيت بذلك أم

---

(١) تفسير الطبري، ج٢٨.

(٢) قاله سعد بن معاذ ـ عن كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

www.abulhasanalinadwi.org

أبت، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق، معتمدة على سياستها الحكيمة، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات القوية، فلن يكون ذلك، وليس عاقبتها إلا الذل والهوان والإخفاق الذريع والانشقاق الداخلي والخيبة عاجلاً أو آجلاً.

وضع العالم الإسلامي والعربي اليوم وسببه:

والعالم الإسلامي بصفة عامة والعالم العربي بصفة خاصة خير شاهد على ذلك؛ فقد كبر على هذين العالمين في الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمي ﷺ، وثقل عليهما إيثار ما أمر به وطلبه على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات، وآمنا بضرورة التنصل عن دينه وأحكامه وحضارته، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية والوطنية والشيوعية والفلسفات الحديثة. وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدواً، وهذا هو العالم العربي، ولا معذرة ولا استعفاء، موزع على نفسه، لم يستطع أن يحل مشكلة فلسطين في هذه المدة الطويلة، ولم يحتل المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الإنساني، وفي كل يوم مشكلة طريفة، وقضية جديدة.

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام ـ وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الإسلامي، وقد عيَّروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة ـ:

«إنكم كنتم أذل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله»[1].

* * *

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٦٠.

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الرابعة

بيَن الإرادة الإلـٰهيّـةِ والأسباب المادّيةِ

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية:

إن القارئ للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرار ووضوح، أن الأنبياء بُعثوا دائماً في بيئة مظلمة خانقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها، وبعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب، وكان كل ما يعتز به إنسان من مال ومُلك وشِيَع وأنصار، والأسباب المادية في جانب أعدائهم، وفي كفَّتهم، وتحت تصرفهم، ولم يكن في جانب الأنبياء وكفتهم إلا الإيمان القوي الذي لا يرقى إليه شك، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمع ونفاق. واعتماد على الله وابتهال إلى الله، واطِّراح على عتبة عبوديته، والعمل الصالح، والتقوى، وحسن السيرة، والأخلاق الفاضلة، وزيادة إلى كل ذلك ـ زيادة لا يستهان بقيمتها ـ الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفَّل الله بنصرها فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

شيء مقصود ومطرد مستمر:

ويبدو لقارئ القرآن أن ماحكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات، وتألّب القوم عليها،

www.abulhasanalinadwi.org

وتنمّرهم لها ورميهم عن قوس واحد، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيف فقير أعزل، وبين جماعة غنية قوية قاهرة، تملك جميع الأسباب، أو ملك مستبد طاغية، ثم النتيجة واحدة دائماً، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولها لها، ويبدو لقارئ القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات ـ وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء ـ وأنه شيء مطرد مستمر، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ولا تزال تملكها وتصرفها كيف تشاء، وتشغلها متى تشاء، وتعطلها متى تشاء، وأنها ـ كما قلنا في المحاضرة السابقة ـ لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها، ولم تتخل عنها بعد أن ملّكتها من أرادت، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء، وبضعف الباطل وسخافته وتهيّئه للانكسار والاندحار: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

تشجيع على التجربة وإطماع في رحمة الله:

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره، وإن اختلف الزمان والمكان، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح، وإن اكفهر الجو وقسا الزمان، وإن معجزات النصر وعجائب القدرة الإلهية تتكرر، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذَكَر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة، ويُطمعهم في رحمة الله، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ويقول عن يونس: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]،

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٠ ـ ١٢١]، ويقول: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣١ ﴾ ويقول بعد ما يذكر قصة لوط: ﴿ نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٥].

ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكوِّن جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية، أو مادة معلومات تاريخية، إنما هي موعظة وذكرى، وحث ودعوة وإرشاد وتوجيه، وتقوية وتشجيع ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

سنَّة الله مع جميع أنبيائه:

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع أنبيائه، فنوح يقول له قومه: ﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، ويقول مبتهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ [القمر: ١٠]، ولوط يقول لقومه: ﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود: ٨٠].

وشعيب يقول له قومه: ﴿ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١]، وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحة ووقاحة: ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

أما أممهم التي بُعثوا إليها فقد كانت ذات الطَّول والحول وذات العُدّة والعتاد وذات الزروع والضروع، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤]، وقول

www.abulhasanalinadwi.org

صالح لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩]، وقول شعيب لقومه: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ اقرؤوها مجموعة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أعظم تحدٍّ للمادية المسرفة وأكبر ثورة على عبادة الأسباب:

أما قصة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن فهي أعظم تحد لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غَنائها عن أربابها، وكأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلِّين بها، المقدسين لها، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها، وكأنه ـ وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره ـ كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها، والتغلب عليها بنصر الله، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها، وكأنه كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة، أن يدوسها بقدمه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة، والآلهة الزائفة والقوى المخيفة.

والسر في ذلك «أن العالم في عصر إبراهيم عليه السلام كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها، وغَلَوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء،

www.abulhasanalinadwi.org

وأنه يخلق الأشياء من عدم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ويستخرج منها أضدادها، ويسخِّرها لما يشاء ومتى يشاء.

أشعل الناس له النيران وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوَّلها إلى برد وسلام، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب، وتسهل التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء، دعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق، ويَعطِف إليهم القلوب، ويجبي إليهم الثمرات، من غير سبب وطريق معروفة، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وأجاب الله دعاءه فضَمِن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطّاً للخيرات والثمرات ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]، تركهم في أرض لا أثر فيها لما يروي الغلة ويبل الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاء، ويحملونه إلى بلادهم، ويترك أهله في بلد قفرٍ لا أنيس

www.abulhasanalinadwi.org

فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ويأتون إليه من كل فج عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنة الله معه يُخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب»[1].

تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق:

وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادي الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبيعية لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها، وجاءت محنة وبلاء للذين ضاق تفكيرهم وكلّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب، وهنا أستعير ما كتبتُ في مقالة لي سابقة أستعرض قصة موسى في القرآن وما فيها من عبرة وذكرى:

«يُولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة، وقد انطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسُدَّت في وجوههم المنافذ والأبواب، حاضرٌ شقي ومستقبل مظلم؛ قلة عدد، وفقر وسائل، وذلة نفوس عدو قاهر، وسخرة ظالمة لا قوة تدافع ولا دولة تحمي، أمة مصيرها معلوم محتوم قد خُلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى، وولادته وحياته كلها تحدٌّ لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء، **أراد فرعون أن لا يولد فولد، وأراد أن لا يعيش فعاش**، يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، **وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل**، ويجدّ به الطلب القوي الساهر، فيفلت وينجو ويأوي إلى ظل شجرة كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة، والزواج الحبيب، ويرجع بأهله فيلفّه الليل المظلم، والطريق الموحش، وتتمخَّض زوجه **فيطلب لها ناراً تصطلي بها فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ويهتدي به العالم**، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة، فيجد النجدة

---

(١) للمؤلف في مجلة (المسلمون)، ص١٨٠ ـ ١٨١، العددان ٧ ـ ٨، سنة ١٣٨١هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

والمدد للإنسانية كلها، ويُكرم بالنبوة والرسالة.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه، وفي ملئه وأعوانه، وهو المطلوب بالأمس، قد تحققت عليه الجناية، وتوجهت إليه الدعوى، وفي لسانه حَبْسَة، وفي موقفه ضعف، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه، وحجته وبيانه، ويلجأ فرعون إلى سَحَرة مصر ليقهر بفنِّهم معجزة موسى التي ظنها فناً وسحراً، فإذا بالسحرة خاضعون خاشعون، يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨].

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء من الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة، ويتبعه فرعون بجنوده، ويصبح موسى، والبحر أمامه، والعدو من ورائه، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فِرق كالطود العظيم، ويَعبُر موسى وقومه ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ٢٣٧][1].

مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف:

ولا تَقلُّ قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي، خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب؛ فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم له، والبقاء في غيابة الجب مدة من الزمان، والتقاط السيارة له والرق، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والأذى والهوان، ولكنه يخرج من كل هذا سليماً معافى، ويعيش، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد في العفة والنزاهة والوفاء والشرف، ويعتصم مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة والإغراء ـ من شبابٍ وجمال وطلبٍ وإلحاح شديد مِنْ جانبٍ له الفضل

---

(١) منقولة من رسالة «ثورة في التفكير» للمؤلف.

www.abulhasanalinadwi.org

وله السلطان وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به، والدخول في السجن في تهمة خُلقية، وفي عصر لم يكن السجن فيه إلا رمزاً للجريمة، ولم يكن إلا مكان الأشقياء، ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد، وقد كان زيادة على كل ذلك غريباً عن مصر لا يتصل بها بجنسية ووطنية، وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر من يفكّر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره وإضعاف شأنه وإساءة شهرته وحرمانه من كل ثقة وتكريم، وبُعدِه عن كل مركز محترم ومكان مرموق في المجتمع المصري، فضلاً عن إمارة وسيادة، فضلاً عن تقليد منصب جليل، لا يحظى به إلا السيد الكريم، الحفيظ العليم، فضلاً عن سيد مصر المطاع يأمر وينهى ويُرجى ويُخشى، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ويتربع يوسف على أريكة مصر، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

مماثلة بين قصة يوسف ومحمد ﷺ:

إن آخر الرسل صلى الله عليه وسلم ومن آمن به ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة، ومثل هذه المشكلات، قلة عدد، وضعف شأن، وفقد أسباب، وخذلان من العشيرة، ومحاربة شديدة من القوم، ومقاطعة وتطويق، وإحصار وتضييق، وصد عن سبيل الله، وتعذيب شديد للمتهدين الذين كانوا يسمونهم (الصابئين) و(السفهاء)، وتآمر على قتل الرسول ﷺ؛ ذعر دائم وخوف قائم، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم:

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملاً ولا تبشر بمستقبل، ولا يُرى فيها وميض من النور، قص الله على رسوله قصة يوسف، وسيرته ﷺ من أشبه السير به، **وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته، حسد ومحاربة في البداية،**

www.abulhasanalinadwi.org

واعتراف وإجلال وندم في النهاية، وإبعاد وإقصاء، ونكران وجفاء في الأول، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر، وغيابة الجب في محنة يوسف، وغار ثور في رحلة محمد ﷺ، وسجن في قصة ابن يعقوب وشعب أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب، وتقرير وإعلان من أعداء كل واحد منهما ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف: ٩١]، والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣]، وختمها بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر، فكأن قصة يوسف قصته، ولم تزل الكناية ـ في الجو المعادي الرهيب ـ أبلغ من التصريح دائماً.

انتصار مقرون بانتصار الأمة:

ثم قص الله عليه ﷺ قصة موسى مع فرعون وملئه، القصة التي قصها في سورة القصص، وهي قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده وتشرفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة، وهو لا يطمع إلا في نار يصطلي بها وتتدفأ بها زوجه، وهلاك العدو ونجاة بني إسرائيل وفوزهم وسيادتهم، وقد افتتح هذه القصة بمقدمة مجلجلة عظيمة، كانت جديرة بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش وتملأها هيبة وإشفاقاً من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً فقال: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦].

مصدر القوة والثقة والأمل، للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين:

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تسلية وتقوية لقلب الرسول ﷺ فحسب، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٢٠]، بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الوطيد، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين، للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء، ويقومون بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله، ويصبرون على الأذى ويثابرون على الجهاد، ويرابطون في سبيل الله، وقد قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال يوسف مجيباً معللاً لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وليعلموا أن هذه سنة الله التي لا تتخلف، وأن الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء، والإيمان والعمل الصالح والطاعة، والصبر والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تُؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوي، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيماني القوي، وإلا إذا كانت دليلاً على أن دعوة الأنبياء هي التي يُكتب لها الانتصار والازدهار، وأن الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يُقدِّر لها الفوز والفلاح، مهما عارضتها الأسباب وتألّفت ضدها القوى

www.abulhasanalinadwi.org

وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المُرْضية مادياً ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣].

إما الإيمان بدعوة الأنبياء وإما الهلاك والدمار:

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في إجمالٍ تارة وفي تفصيلٍ أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً، تجمع بينها نقطة لاتختلف، وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات، وفوزهم على أعدائهم، إما بإيمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها، وإما بهلاكهم ودمارهم ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

لا قيمة للمصالح الفردية والقومية:

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية ونجاتها، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة وكثيراً من القوانين الطبيعية ويُحدث ما لا يخطر على بال، أما المصالح الفردية أو القومية أو حب العلو والسيادة والطموح والكبرياء، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً ولا تهدم شراً وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة، وليس لها مع قوى الشر ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها، وفي ولايتها وحضانتها، وأن يعود نفعها إليها، فلا قيمة لها عند الله ولا تعدل عنده جناح بعوضة، ولا يبالي الله في أي واد هلكت وأي عدو تسلَّط عليها ومتى يفاجئها الموت أو ثورة عارمة جبارة لا ترحم ولا ترثي، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر.

التفكير الخاطئ السائد:

إن التفكير السائد مع الأسف اليوم في الشعوب الإسلامية، وفي أنحاء العالم الإسلامي، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات وآمنت به

www.abulhasanalinadwi.org

إيماناً راسخاً، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة، وأصبح من عقيدة العاملين وحتى دعاة الدين وهتافهم (المادة قبل كل شيء) وهذا المبدأ هو الذي تنقضه وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين، وما جرى لهم من الحوادث وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين، وما فعل بأعدائهم.

وهنا أستعير مرة ثانية ما قلته في رسالتي (ثورة في التفكير).

«منذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه (الطاقات) و(الإمكانيات) وبما نملكه من الوسائل، والمواد الخام وحاصلات البلاد ومنتجاتها، وعدد النفوس والقوة الحربية، فنرى كفتنا راجحة في إقليم، طائشة في آخر، راجحة في حين، طائشة في حين آخر.

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر، وآمنا بأنه وضعٌ لا يقبل التحول والتطور، وتجدَّد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة «إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدِّق».

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجَدَارته للسيادة، وإذا فكرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلوم والدراسة والعقل والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا، وسَهْمَنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم، وآمنا بأننا لم نُخلَق إلا للخضوع والخنوع، والعيش على هامش الحياة وعيالاً على الغرب، مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين»[1].

سلاح المؤمن ومفتاح النجاح والإيمان والطاعة:

ولكن ما قص الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن ـ وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة في هذه المحاضرة ـ تعارض هذا التفكير على الخط

---

(١) ثورة في التفكير، ص٢ ـ ٣.

www.abulhasanalinadwi.org

المستقيم، وتبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم، وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعَفَة، وتبوَّأت الإمامة والزعامة في العالم هو (الإيمان) و(الطاعة) و(الدعوة إلى الله) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، و﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء:

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة، وهذا هو الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة، وهذا هو المنهج الرشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسجله عليهم القرآن، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادئ وتحتضن الدعوات إلا في هذا الطريق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الخامسة

عَظَمَة البعثة المحَمَّديَّة

نكبة العصر الجاهلي:

لم تكن نكبة الجاهلية ـ هذا العصر الذي أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده ـ انتشار الكفر والفجور، والمعاصي والآثام، والظلم والطغيان، وإهدار كرامة الإنسان والاعتداء على حقوقه، وتغلُّب الحكومات الجائرة والملوك الجبابرة، ولم تكن نكبتها قلة عدد الصالحين العابدين لله وضعفهم، وكل ذلك ما يؤسَف له، ولكنه وقع مراراً في تاريخ الإنسانية الطويل، وعالجه رجال الإصلاح والدعوة وأهل الضمائر الحية، والعزائم القوية في عصورهم.

ولكن نكبةَ الجاهلية التي جاءت لإزالتها والتغلب عليها البعثةُ المحمدية التي اختارها الله لمعالجة أعظم نكبة ونكسة للإنسانية، هي فقدانُ العلم الصحيح من العالم والإرادة الخيرة، وفقدان الجماعة التي تنتصر للحق وتحارب الباطل، وتصارع الشر وتبني عالماً جديداً.

فقدان العلم الصحيح:

لقد فُقد العلم الصحيح الذي يعرف به الإنسان ربه معرفة صحيحة ويصل به إلى خالقه، ويعبد به عبادة خالصة مُرْضية، حتى إذا وُجدت الإرادة الصحيحة القوية والطلب الصادق لم ينتفع به صاحبه، وكل علم وُجد في هذا العصر مشوب بالجهل ممزوج بالخرافة، مُحرَّف عن الأصل، خطؤه أكثر من صوابه، وضرره أكبر من نفعه.

www.abulhasanalinadwi.org

فقدان الإرادة الخيِّرة القوية :

وإذا وُجد هذا العلم الصحيح ـ على ندرته في صَدْرٍ من صدور العلماء، أو في كتاب من كتب الحكماء، أو كآثارة من علم نزل قديماً من السماء ـ لم تجد الإرادة الخيرة القوية التي تلتقطه من مكانه، وتعض عليه بالنواجذ، وتتغلب به على شهوات نفسه ومعارضة بيئته، فقد فُقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق، وكلّت العزائم والقوى في هذا الطلب، وانصرفت إلى طلب المعاش وإرضاء الشهوات وتحقيق مطالب النفس، وطاعة السلاطين العمياء، والاستماتة في سُبلهم، وانطفأت جذوة الحب، وبردت مجامر القلوب، واستحوذ عليها حب الدنيا، وما بقي من مظاهر الدين؛ فإما وثنية خرافية، وإما تقاليد سطحية.

فقدان الجماعة التي تنتصر للحق :

وإذا وُجد العلم الصحيح والإرادة الخَيِّرة لم توجَد الجماعة التي يلتجئان إليها في الشدة، ويستمدان منها القوة عند الضعف، فضاعا في جهود فردية وإصلاحات شخصية، وكان هؤلاء الأفراد ـ الملتجئون إلى الكنائس والأديار أو المغارات وقلل الجبال ـ مصابيح احترقت ذبالتها، ونفد زيتها، وخَفَتَ نورها، أو كَيرَاعات تطير في ليلة شاتية مطيرة مظلمة، لا يهتدي بها المسافر التائه، ولا يتدفَّأ بها الفقير المقرور.

الحاجة إلى طلوع شمس جديدة :

أما العلم الصحيح الذي يهدي الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة به وأسمائه الحسنى، ويصلهم به صلة جديدة قوية، ويملأ العقول يقيناً جديداً، والقلوب حباً شديداً، وينفي تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الشك إلى اليقين، فلم يكن إلا علماً محفوظاً غضاً طرياً منزلاً من السماء حديث عهد بربه، وكانت النبوة الجديدة وحدها هي التي تستطيع ـ بإذن الله ـ أن تغيِّر هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلها، وتردع أهل الشرك والوثنية من خرافتهم، وأهل الكتب من اليهود والنصارى والمجوس

www.abulhasanalinadwi.org

من تحريفهم وجهالتهم، ويعترفون هم جميعاً ـ إذا أنصفوا وخافوا الله ـ بأن النجوم قد أَفَلَتْ، وأن شمساً جديدة قد طلعت، وأن الصباح قد أغنى عن المصباح ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البيّنة: ١ ـ ٣].

تعاون الفلسفة والوثنية على إضعاف الإيمان وإضلال الإنسان:

وكانت الإرادة الخيِّرة القوية خاضعة دائماً للعلم الصحيح والإيمان القوي، فإذا آمن الإنسان بحقائق وآمن بمضارَّ ومنافع وخاف ورجا ورغب ورهب، تبعت ذلك إرادته وطاوعته أعضاؤه واستجابت له قِواه؛ ولكن فَقَدَ الإيمانَ القوي في العصر الجاهلي، وشكَّ الإنسان في وجود الله وفي وجود الآخرة وفي وجود الجنة والنار، وفي نتائج أعماله وتصرفاته، وتعاونت الفلسفة والشرك على إضعاف هذا الإيمان وإضعاف رابطة العبد وربه؛ أما الأولى فبالإلحاح الشديد على نفي الصفات، وأما الثاني فبصرف هذه الصفات إلى المخلوقات، فمن آمن بالأولى لم يَرَ حاجة للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق الذي تجرَّد عن كل صفة وعن كل قدرة، وعن الرحمة والمحبة، ومن آمن بالثاني تشاغل بالمخلوقات والالتجاء إليها ولم يرَ حاجة أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى ربٍّ لا يُرى بالأبصار، قد تنازل لكثير من خلقه في أمور العباد.

وهكذا توزَّع العالم في معسكرين: معسكر لا يجد في نفسه اندفاعاً وداعية للالتجاء والدعاء والسعي للآخرة، ومعسكر لا يجد فرصة للسؤال مَن رب الأرباب، ووجد كلاهما مرتعاً خصباً في العصر الجاهلي، وهكذا ضاعت الإنابة المودعة في قلب الإنسان، وضاعت القوى الغنية المودعة في أعضاء الإنسان في جحود وخمود، وفي وثنية وخرافة، وفي عبادة النفس والسلطان، والطاغوت والشيطان، وعكف العالم الإنساني كله من الشرق إلى الغرب على عبادة أصنام وآلهة قد تخيلها أو توارثها، أو مقاصد وغايات ومُثُل عليا في الحياة قد اخترعها وفرضها على نفسه، وحق عليهم كلهم قول إبراهيم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥].

www.abulhasanalinadwi.org

لا يغيّر الوضعَ الجاهلي إلا الإيمانُ النبوي القوي العالمي:

ولم يكن لغير نبي مؤيد من الله، صاحب قوة قدسية وشخصية نبوية أن يعيد هذا الإيمان الضائع المفقود من قرون متطاولة إلى قلب الإنسان، ويشغله بطلب جديد وحب جديد، ويصرف إرادته القوية من طلب الدنيا الحلوة الخَضِرة، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة، وإرضاء السلاطين الأقوياء الأغنياء، إلى طلب الله تعالى؛ الذي لا تدركه الأبصار، وإفناء قواه في مرضاته، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيله إيماناً بموعوده وطمعاً في ثواب الآخرة، إنه يحتاج إلى إرادة لا تثنيها الجبال، ولا توهنها معارضة الجن والإنس، «لو وُضِعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه»[1] إرادة اقتضتها الرحمة الإلهية بالإنسان، فلا بد أن تقوى وتتحكم، ولا بد أن تتحقق وتتم، إنه يحتاج إلى إيمان لو وُزِّع على العالم كله وعلى الإنسانية كلها لوسعها، وبَدَّل شكه يقيناً، وضعفه قوة، إيمان كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن وتزيغ فيها الأبصار.

وقد قام الأعداء الألداء على وجه الغار، ويقول: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان يرى من أمد بعيد وفي ظلام شديد، في يد سراقة الفقير البدوي سِوَاري كسرى؛ إمبراطور فارس، وكان يُرى في جوع قد مسَّ، وحصار قد طال، في شرارة صخرة الخندق التي كسرها؛ القصرَ الأبيض لقيصر الإمبراطور الثاني، إنه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهلي العالمي وإعادة الحياة واليقين والحماسة الدينية إليه إلا بهذا الإيمان القوي النبوي، وإلاّ بهذه الإرادة الإلهية للإنسان بالخير: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

---

(١) من قول رسول الله ﷺ، انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٤٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الحاجة إلى أمة تبعث للإصلاح والكفاح الدائم:

وكان هذا الفساد أعظم وأوسع من أن يتداركه أفراد منتشرون ومصلحون موزعون، أو عصابة قوية أو مؤسسة غنية، فقد اتسع الخرق على الراقع، وطم الوادي على القرى، إنما كان ذلك عمل **أمة تُبعث وتَتَّصل وتستمر وتكافح وتناضل وتنتشر في أرض الله، وتتحدى الباطل أينما كان، وتجتث الشر أينما وُجِد، وتملأ أرض الله قِسطاً وعدلاً، كما مُلأت ظلماً وجَوْراً، وكان العالم في حاجة إلى بعثة نبي من أعظم الأنبياء مقرونة ببعثة أمة من أقوى الأمم، وهكذا كان،** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه كانت البعثة المحمدية ـ أيها الإخوان ـ جاءت في أوانها وفي شدة حاجة الإنسانية إليها ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥ ـ ٦].

تأثير البعثة المحمدية:

«وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة ـ التي كانت تسمى النسل الإنساني ـ يدب فيها دبيب الحياة، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عششت عليها، وباضت وفرخت، وهي تحسب أنها ميتة لا حراك بها، وإذا بيوت العناكب تتفتت وتتساقط، وذلك ما يعبِّر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى وخمود نار المجوس، أَمَا رأيتم كيف تتناثر المباني المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض، فيضطرب بها ظهر الأرض، فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم ﷺ، وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم»[1].

---

(١) معقل الإنسانية للمؤلف، ص٢ ـ ٣.

www.abulhasanalinadwi.org

مولد عالم جديد:

لم يكن مولد رسول الله ﷺ وبعثته مولد نبي فحسب، أو مولد أمة فحسب، أو مولد عصر فحسب، **إنما كان مولد عالم جديد بدأ من ولادته وبعثته، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم وتغلغت في أحشائه، وخضع لها هذا العالم في عقيدته وفي أسلوب تفكيره، وفي مدنيته، وفي أخلاقه واجتماعه، وفي علمه وثقافته، حتى لا يمكن تجريده عنها، ولو جُرِّد منها لحُرم أغنى ثروة يملكها وأعظم قوة يعتزّ بها، ولنكص على أعقابه، ورجع إلى الوراء، وهو يدين له في حياته، لأن بعثته ﷺ هي التي منحته حق الحياة ومدت في أَجَله، وغلبت قوى الخير على قوى الشر، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه، ولعنة الله التي حقت عليه، والشؤم الذي أظله، وكان جديراً ـ قبل بعثته ـ بأن يطوي بساطه وينقض أساسه** ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. **«إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»**[1].

تصوير للعصر الجاهلي:

وماذا رأى في الأرض ـ وهو العليم الخبير ـ لم ير إلا ساجداً لوثن أو عابداً لبطن وخاضعاً لسلطان أو مطيعاً لشيطان، أما الدين الخالص، أما الطلب الصادق، أما العلم الصحيح والعمل الصالح، أما الإخبات إلى الله، والسعي للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر، وأغرب من العنقاء المغرب، وصدق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي إذ قال ـ ولم أر تصويراً أدق للجاهلية منه ـ:

«اعلم أن العجم والروم لما توارثوا قروناً كثيرة، وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمَّقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها،

---

(١) حديث شريف.

www.abulhasanalinadwi.org

فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها، حتى قيل إنهم كانوا يُغَيِّرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن[1] وحمام وبساتين، ولا يكون لهم دواب فارهة وغلمان حسان، ولا يكون له توسُّع في المطاعم وتجمُّل في الملابس، وذكرُ ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تُمزع، وتولَّد من ذلك داء عُضال، دخل في جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة، ولم يبق منهم أحد، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها، وذلك أنَّ تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم، والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يُستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تُقتنىٰ إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه»[2].

اتجاه عالمي جديد:

وقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبته رأساً على عقب، فاكتسحت العالم المتمدن كله موجة قوية من الإيمان والطلب لله، والجهاد في سبيله والسعي للآخرة، وإدالة الإنسانية من أعدائها، وإنهاض الأمم من كبوتها، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، واتجهت إلى هذه الغاية همم أهل العزائم وكفاية أهل المواهب، وذكاء الأذكياء، وسليقة الأدباء، وقريحة الشعراء، وسيوف الأقوياء، وأقلام العلماء، وعبقرية النبغاء، وكثر في هذا العالم الذي لم يكن يعرف غير ضرب

---

(١) فسقية.

(٢) حجة الله البالغة (باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم).

www.abulhasanalinadwi.org

واحد وغير طراز واحد من الإنسانية، وهو عابد النفس وأسير الشهوة وصريع الهوى.

كثر في هذا العالم ـ في كل عصر وفي كل بقعة ـ عبَّاد مخلصون، وعلماء ربانيون، وحكام عادلون، وملوك زاهدون، وأبطال مجاهدون، لا يحصيهم كثرة من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء، يباهي بهم الله الملائكة، ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً، والأعداء مُقنِعي رؤوسهم. وانتشر العلم الصحيح النافع، والعمل الفاضل الصالح، والإرادة الخيرة القوية، والجماعة المؤمنة المجاهدة، التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتجاهد في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم، واتصل تاريخ الإصلاح والجهاد والدعوة والإرشاد لا تتخلله فترة «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[1].

الأمة المحمدية معجزة الرسول ﷺ:

وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير أثر البعثة المحمدية وفضلها وإنتاجها في كتابه (الجواب الصحيح) يقول رحمه الله:

«وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته».

«ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها؛ من الصدق والعدل والوفاء، لا يُحفظ له كذبة واحدة، ولا ظُلْمٌ لأحد، ولا غَدْرٌ بأحد، بل كان أصدق الناس، وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم، وأمن وخوف، وغنى وفقر، وقلة وكثرة، وظهوره على العدو تارة، وظهور العدو عليه تارة، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب، التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام، لا يعرفون

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٠٨٧.

www.abulhasanalinadwi.org

آخرة ولا معاداً، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى إن النصارى لما رأوهم من حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم، ظهر أنهم أَدْيَن من غيرهم، وإذا قيست شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم تبيَّن أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلَّموها وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور والنبوءات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده، كالحواريين ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود، والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويُقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يُفرِّقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

* * *

(١) ملتقط من (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح).

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة السادسَة

مَاثِرَة النّبوَّة المحَمَّدِيَّةِ

أهميـة الإنسـان:

إن مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان، وفيه سر سعادته وشقائه، فإذا وُجد الإنسان الحقيقي وفَقَد كل ما يعتز به هذا العالم من ثروة وزينة وجمال، لم يكن رزءاً كبيراً أو خسارة فادحة، وكان وجود الإنسان الحقيقي خَلَفاً لكل فائت، وعِوضاً عن كل مفقود، وسداً لكل عوز، وأعاد الإنسان إلى العالم بنشاطه وحيوته وإنتاجه وعزيمته كل ما فقده هذا العالم، أجمل وأكمل، وأكثر وأوفر، وإذا خُيِّر هذا العالم أو من يهمه أمره بين الإنسان من غير شيء وبين كل شيء من غير الإنسان، واستعمل عقله وما وهبه الله من قوة الرشد والتمييز لكانت خيرته الإنسان من غير شك ومن غير تردد؛ فالإنسان هو الذي خُلق له هذا العالم، وبسببه نال هذه القيمة والشرف.

ليس شـقاء هذا العالم في فَقْـد الآلات والوسـائل، إن شـقاءه في سـوء استعمالها وفي وضعها في غير محلها، إن سبب كل نكبة نُكب بها هذا العالم في تـاريخه الطويل المليء بالأحداث، هـو ضلال الإنسـان وانحرافه عن الجادة المستقيمة، وعن فطرته السليمة، أما القوى والوسائل فلم تكن إلا آلات صماء بريئة في يده تمتثل أمره وتنفِّذ رغباته، وإذا كانت لها جناية فهي أنها ضَمَّت إلى هذه النكبة سرعةً في الوصول والانتشار، وسعةً في المساحة والامتداد.

www.abulhasanalinadwi.org

أسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها:

إن هذا الكون الواسع مليء بالأسرار مليء بالعجائب، وإن جماله ليبهر الألباب، ويثير الدهشة والاستغراب، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها، وكنوزها ودفائنها، وإلى سعة القلب الإنساني وبُعد أغواره، وإلى سُمُوِّ الفِكر الإنساني وسعة آفاقه، وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها، إلى آماله البعيدة التي لا تكاد تنتهي، وإلى طموحه الذي لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح واللذات والخيرات والمسرات، والملك والسيادة، والنعيم والسعادة، وإلى مواهبه المتنوعة المتناقضة، الواسعة الكثيرة التي لا تُعد ولا تحد، كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر أو ذرة من صحراء، وغاب في سعة القلب الإنساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة، **إن الجبال تتضاءل أمام إيمانه الواثق الراسخ، وإن النار لتنطفئ وتحقر نفسها أمام حبه الولوع الوهاج، وإن البحار لتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الإنسان خشية الله، أو رحمة على ضعيف، أو ندامة على تفريط، إن الإنسان إذا تجلى جمال سيرته وحُسن خلقه ورقة عاطفته أزرى بكل جمال في هذا العالم، وبهر كل حُسن في هذا الكون، إنه واسطة العقد وبيت القصيد، وأعظم آية من آيات الخلاق المبدع الحكيم، الذي خلقه في أجمل صورة وأكمل سيرة وأحسن تقويم.**

الإنسان فوق كل مساومة وتقويم:

إن العالم بما فيه من خزائن وكنوز وثروات وحكومات، لا يستطيع أن يقوّم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشك والضعف، والحب الذي لا يعرف المادة والأشكال، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحدود، والإخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع، والأخلاق التي لا تعرف المساومة وجزاء الشر بالشر، والخدمة المخلصة التي لا تريد جزاءً ولا شكوراً، إن الإنسان إذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته، وإذا اتسع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان، وأرسل النفس على سجيتها، ضاق هذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً لا هواء فيه ولا نور، إنه لا تُسبر أعماقه، ولا يبلغ أغواره، ولا يحاط بأسراره، ولا تكتنه

www.abulhasanalinadwi.org

حقيقته ولا تنفد عجائبه، علمه وحلمه، وكرمه ونبله، ومحبته ورحمته، وعطفه وإحسانه، ورقة شعوره ودقة إحساسه، وإيثاره وزهده، واعتداده بكرامته، ونفيه لذاته، واستعداده القريب لمعرفة ربه، والتفاني في سبيل مرضاته، وفي سعادة بني نوعه، وتلقيه لكل علم دقيق عميق، ولكل علم مفيد جديد، كل ذلك مما تحار فيه الألباب ويقصر عنه ذكاء الأذكياء.

مأثرة النبوة المحمدية:

إن وجود هذا الإنسان مفتاح كل سعادة وخير، وحل كل أزمة ومشكلة، وإن تقويمه إذا زاغ وتهذيبه إذا فسد، وتكثيره إذا عز وندر، وإعادته إذا ضاع وفقد موضوع كل نبوة، ومهمة كل نبي في عصره، وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة وبهذا الانتشار وفي صورة أتم لم يُسمع بمثلها في التاريخ ولم تقع عليها عين السماء ولم تطلع عليها الشمس، وإن انخراطهم في سلك واحد، واجتماعهم في شمل واحد، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحد، وهدف واحد، مأثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى.

إن محمداً ﷺ بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الإنسان من مستوى لم يبدأ نبي أو مصلح عمله منه ولم يكلّف به؛ لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير، وبلغ ﷺ بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبي إليه، بدأ من مستوى تنتهي هنالك الحيوانية وتبتدئ منه الإنسانية، وبلغ به إلى مستوى هو منتهى الإنسانية، ولا منزلة فوقه إلا النبوة، وقد خُتمت بمحمد ﷺ.

واقع أجمل من الخيال والشعر:

إن كل فرد من هؤلاء الأفراد معجزة مستقلة وآية من آيات النبوة، ومأثرة من مآثرها الخالدة، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الإنساني.

إن مصوراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخية صورة أجمل وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع، وفي شهادة التاريخ، وإن شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ومقدرته الشعرية أوصافاً

www.abulhasanalinadwi.org

أجمل، وسيرة أعطر، وجمالاً أكمل مما وجد في هؤلاء الأفراد، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيد واحد فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد الذين نشؤوا في حجر النبوة وحضانتها، وتخرجوا في مدرستها.

إن إيمانهم الراسخ، وعلمهم العميق، وقلبهم البار، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة، وعن كل رياء ونفاق، وتجردهم من الأنانية، وخشيتهم لله وعفتهم ونزاهتهم وعطفهم على الإنسان، ورقة مشاعرهم وشجاعتهم وجلادتهم، وحرصهم على العبادة، وحنينهم إلى الشهادة، وفروسيتهم وفتوتهم، وإحياءهم الليل، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة، وعدلهم وسهرهم على مصالح الرعية وإيثار راحتها على راحتهم، كل ذلك لا يوجد له نظير في الأمم ولا سوالف في التاريخ.

الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة:

«أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المُؤثِر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خُلقت له وأنه خُلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً، فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم.

اللبِنات التي قام عليها المجتمع الإسلامي:

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في دورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثِراً للآخرة على الدنيا،

www.abulhasanalinadwi.org

متغلباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفُّفُ الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وُجدت حياة عامة، كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجِدٌّ واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء، وإنصاف مع النفس والغير»[1].

نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب:

إن هذا الفرد قد نجح في كل اختبار ومحنة تُظهر مواطن الضعف، وتُبرز كوامن النفس، وبرز فيها كالإبريز الخالص والتبر المسبوك، لا غش فيه ولا زيف، وأبرز في كل موقف دقيق محرج من قوة الإيمان وقوة الإرادة وقوة النفس وتأثير التربية النبوية، ومن رقة العاطفة ومن دقة الشعور بالمسؤولية ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والإيثار، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق، ومَن جربوا الإنسان وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة.

وكان من أدق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولاً أمام أحد، ولا تراقبه عين، ولا تناقشه محكمة أو لجنة، يزهد في ما أبيح له وفي خاصة ماله، وفي التزر اليسير التافه الذي أباحته الشريعة وجرى به العرف، واستهان به الناس في كل زمان.

زهد الولاة وتقشفهم في الحياة:

ومن أروع الأمثلة لذلك أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلواً واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل ما فضل منها لثمن الحلوى؛ لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان وليس بيت مال المسلمين لتترفَّه به أسرة الحاكم وتتوسع به في المطاعم.

---

(١) من رسالة (من غار حراء) للمؤلف.

www.abulhasanalinadwi.org

وهنا تصوير أمين لموكب الخلافة، وحكاية رحلة رسمية في مصلحة حكومية لحاكم من أقوى الحكام في ذلك العصر، ومن أوسعهم مملكة، والذي كان اسمه يخلع القلوب ويرجف البوادر من بعيد، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ويصورها بقلمه البليغ.

«قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيليا على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه، فقال: ادعوا لي رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً، فأُتي بقميص كتان فقال: ما هذا؟ قالوا كتان، قال: وما الكتان؟ فأخبروه، فنزع قميصه فغُسل ورُقع وأُتي به، فنزع قميصهم ولبس قميصه، فقال له الجلومس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم، فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب لغير الله بديلاً، فأُتي ببرذون فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحل، فركبه بها فقال: احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأُتي بجمله فركبه»[1].

وروى الطبري قال: «خرج عمر وخلّف علياً رضي الله عنهما على المدينة، وخرج معه بالصحابة وأغذُّوا السير، واتخذ ابلة(على ساحل البحر الأحمر) طريقاً؛ حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق، واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه، فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم (يعني نفسه) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه، حتى انتهى هو إلى ابلة، فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين ابلة ونزلها، فرجعوا إليه»[2].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٥٩ـ٦٠.

(٢) الطبري: ٤/ ٢٠٣ـ٢٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

نموذج إنساني رائع:

إن هذه الملامح والقَسَمات الجميلة الرائعة من زهد وتواضع، وإيثار وعطف ومواساة، وشجاعة وعدل، وحكمة وصدق، منتشرة في وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ، لو جمعها مؤرخ أو أديب أو عالم من علماء النفس والأخلاق، وكوَّن منها شخصية واحدة أو صورة موحدة؛ لكانت من أسمى السير البشرية، ومن أجمل الصور الإنسانية في المصور الإنساني الكبير، وفي المعرض البشري التاريخي العالمي، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملاً شاملاً وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفريدة التي أبرزتها للعالم تربية الرسول ﷺ، وصحبته، فإننا نجد وصفاً لبعض الشخصيات يتسم بالبلاغة وحسن التصوير ودقة التعبير، وقد عُرف العرب قديماً بإجادة الوصف، وبلاغة التصوير، وصدق التعبير، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ومدى نجاحها وإبداعها، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذي ظهرت فيه معجزة الرسول ﷺ في أروع مظاهرها، وهي صفة علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ ورابع الخلفاء الراشدين، الذي نشأ في بيت الرسول ﷺ وفي حضانته وتربيته، وهي قطعة تستحق أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً وتعبيراً وتصويراً، قال ضرار بن ضمرة ـ وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن يصف له علي بن أبي طالب الذي صحبه طويلاً وعرفه من قرب ـ فقال:

«كان ـ والله ـ بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلّب كفه، ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، كان ـ والله ـ كأحدنا؛ يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا، لا نكلمه هيبة ولا نبتديه، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يُعظِّم أهل الدين ويحب المساكين، ولا يَطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من

www.abulhasanalinadwi.org

عدله، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه، وغارت نجومه، وقد مَثَلَ في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول:

«يا دنيا! أَبِيَ تعرَّضتِ أم لي تشوفتِ! هيهات هيهات! غُرِّي غيري، قد بتتُّكِ ثلاثاً لا رجعة فيكِ! فعمركِ قصير، وعيشكِ حقير وخطركِ كبير! آه من قلة الزاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق»[1]!.

الجيل الإسلامي الأول:

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرسول ﷺ، وأحكمت تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كله، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الإنسانية، وقد وصفه أحد أفراده، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغة نادرة وكلمات موجزة عميقة دقيقة، زاخرة بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى، فقال: **«أبرّ الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه وإعزاز دينه»**[2].

وإذا قورن هذا الجيل بجيل آخر رجح عليه في المجموع وكانت مآخذه ـ ومما لا يخلو منه بشر ـ ضئيلاً في جنب محاسنه ومظاهره العظيمة البشرية، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ودقيقاً في قوله:

«وخَيَار هذه الأمة هم الصحابة، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص؛ فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير، وإذا قيس إلى ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض، ولا ينظر إلى

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي.

(٢) رواه الدارمي في مسنده.

www.abulhasanalinadwi.org

الثوب الأسود الذي فيه بياض وهذا من الجهل والظلم»[1].

تـأثير الرسـالة المحمدية في الأجيال المتأخرة:

ولم يكن تأثير دعوة الرسول ﷺ وتعليماته، وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه، وطالب بها أتباعه من بعده، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلت ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميـع الأحوال، قاصراً على العهد الذي بُعث فيـه والجيل الذي أدرك وسـعد بصحبته، **إنما كان الشمس التي تونع في نورها وحرها الزرع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالي، فينتفع بها القاصي والداني؛ لأن دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، واسـتحضار رقابـة الله والخوف من سـخطه وعقابـه، والطمع في أجره وثوابه، والإشفاق من النار، والحنين إلى الجنة، وسيرته ﷺ في الزهد في حطام الدنيا، والرغبة في الآخرة، والشظف في العيش، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته فيما يرفعهم ويعينهم، وكلما كان الرجل أبعد كان في الإيثار أحق وأقرب، وكلما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد، وفي الجهاد والمشقة والتضحية أقـرب، وكـان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيـس الدقيقـة الرقيقـة لا يتخيلها الأذكياء، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال.**

كان كل ذلك مدرسة جامعة عالمية خالدة، ينسب إليها ويلتحق بها أجيال بعد أجيال، ويتخرج فيها علماء وزعماء وملوك وحكام وعُبَّاد وزهاد، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والإنسـانية الأوليـة ثم فاقـوا فيها، وبـزُّوا العالم والأمم في سُموِّ أخلاقهم، ولطافة حسهم، ورقة شعورهم، ودقة أمانتهم، وكثرة زهادتهم، على تملكهم لأسباب البذخ والترف، ومفاتيح الخزائن وأزمَّة الدول، ومصير الشعوب والأمم، يخضع لهذا التأثير أفراد يتفاوت بهم الزمان ويبعد بهم المكان، ولكنهم زرع الإيمان، وغرس النبوة، وثمرة الدعـوة الإسـلامية، ومأثـرة نبوة محمد ﷺ وإنتـاجها، وكل حسـن في سيرتهم وأخلاقهم مقتبـس من مشكاة النبوة المحمدية

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٣٢٤.

www.abulhasanalinadwi.org

العالمية، لا منَّة لآبائهم وبيئتهم وثقافتهم وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة، وفي هذه السيرة، وفي هذه الأخلاق، فلولا دعوة رسول الله ﷺ وتعليماته، ولولا حبهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته، ولولا فضل الإسلام لكانوا في العقيدة عبّاد الأصنام، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والأنعام، لا توحيد ولا تقوى، ولا زهد ولا إيثار، ولا رقة عاطفة ولا كرم خلق.

بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة، وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم:

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها، ومما غرسته النبوة المحمدية بعيداً عن مهد الإسلام، وعن جزيرة العرب، بعيداً عن عهد الرسالة والصحابة، بعيداً عن الأصل المُضَريّ، والدم العربي، وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي العجمي في القرن السادس الهجري[1] يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شداد:

إنه ملك ما ملك، ومات ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية، ومن الذهب إلا جرام واحد صوري، ما علمت وزنه.

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم، ولم يفضل درهم واحد.

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال؛ حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه، وسمعته يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب؛ فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى، وكان يعطي فوق ما يُؤمَّل الطالب، فما سمعته يقول أعطينا لفلان»[2].

---

(١) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩هـ.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد، ص١٣ ـ ١٤.

www.abulhasanalinadwi.org

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به وينفقون على تجهيزه، يقول ابن شداد:

«ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي بُلَّت به الطين، وأُخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضر القاضي الفاضل من وَجْهٍ حِلٍّ عَرَفه»[1].

ويتحدث مؤرخه الإنكليزي الشهير (Stonely Lonpool) في كتابه المشهور (صلاح الدين)[2] فيقول:

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم وتلك السماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه وردَّه للإسلام، كان ذلك كافياً ليثبت أنه لم يكن أعظم رجل في عصره فحسب؛ في علوّ الهمة وفي العظمة والشهامة والفتوة، بل كان أعظم رجل في هذا الشأن في كل عصر وزمان.

ولم يزل هذا التأثير قوياً سخياً بعيد المدى واسع الأرجاء والآفاق، يصنع عجائبه ويظهر روائعه في بلاد تقع في أقصى العالم الإسلامي، وفي شعوب حديثة العهد بالإسلام، وفي رجال لا يتصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسب أو لغة أو ثقافة، يسلم أحدهم على يد داعية إسلامي، أو مرشد روحاني، وينشأ في أولاده وأحفاده الأقربين مَلِكٌ في صورة مَلَك، وزاهد فقير في لباس ملك، خشية وتقوى وعدل وقسط، وعطف ومواساة، ورحمة وبر، واحتساب ونية، وصدق وإخلاص، لا توجد أمثلته في زُهَّاد الأمم الأخرى وأحبارها ورهبانها فضلاً عن ملوكها وسلاطينها، وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلامي الطويل الزاهي بهذه النماذج

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد، ص٣٥١.
(٢) صلاح الدين، ص٣٠٥.

www.abulhasanalinadwi.org

الرفيعة، على قصة واحدة لا تَبْلى جدتها وطرافتها، ولا تنتهي روعتها على مرّ الأيام وكثرة الإعادة والتكرار:

كان بين السلطان مظفر الحليم ملك كجرات (م٩٣٢هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسة قديمة، وقد كان الخلجي معتدياً مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامية، التي يحكمها مظفر الحليم، ويضطر الحليم إلى الدفاع عن ملكه ورد الغارة عليه، حتى حدث ما غيَّر الوضع وجعل من الملك المعتدي المُدِلِّ بقوته وأبهته طريداً لاجئاً يطلب من عدوه الكريم النفس الغوث والنجدة، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثني (مندلي راي) واغتصب بلاده، ولم يجد السلطان محمود ملجأ إلا في عطف عدوه القديم مظفر الحليم وفي حميته الإسلامية، فلقي منه من البر والكرم وحسن الإجابة وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجل لاتأخذه حميّة الجاهلية، ولايؤمن بالفلسفة المادية (الانتهازية)، فلم يستغل هذا الوضع، ولم يشمت بالعدو والسليب الضعيف، ببل انتهز الفرصة لإرضاء الله وحده ولإخزاء الشيطان، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو، واهتم بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر، وجازف بحكومته وحرية بلاده في سبيل المحافظة على حرية بلد إسلامي منافس، وإعادة الإسلام إلى مركزه واعتباره في هذه الدولة، وتقدمت القوات البرهمية والإمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندلي، ووقعت حرب طاحنة مجنونة كثر فيها القتلى، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد وهزم العدو هزيمة منكرة، وأحرقت الأميرات الوثنيات والحرم الملكي أنفسهن على عادة ملوك راجبوت، وعادت البلاد إلى الإسلام.

وهنا تجلَّى النبل الإنساني والخلق الإسلامي في أروع مظاهره، فقد أشار أهل الرأي من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية؛ لقصورها البديعة التي لا يوجد لها نظير في الهند، وقلاعها الحصينة وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارَّة، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً واسترقَّها فاستحقها، والملك للقوة والغلبة، والبلاد للمنتصر.

www.abulhasanalinadwi.org

ولما سمع الملك هذا الرأي وعرف ما تُحدِّث به القادة نفوسهم، أرسل إلى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحد في جيشه في دخول البلد، وسأله السلطان البقاء في القلعة، والاستجمام فيها مدة من الزمان، فلم يقبل وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد والعودة إلى ثكناتها، وقال للخلجي:

إنني لم أتقدم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده وطمعاً في ثوابه، وعملاً بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله[1] وقد تحقق ذلك، وبيَّض الله وجهي ووجهك وبيض وجه الإسلام، وقد سمعت من أصحابي ما لو عملت به لحبط عملي وضاع جهادي، والفضل لك وليس لي، فقد أكرمتني وكنت سبباً في هذه السعادة، وأنا قافل إلى بلادي لا أريد أن أُحبط عملي وأخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وهنا تحرك الجيش المنصور اللجب، ورفع الفرسان أعنة خيلهم وانصرفوا راشدين.

وبعد أن فتح المظفر (مندو) ودخل محمود في البلد عزيزاً مكرماً، أخذ صديقه المظفر لينتزه ويطلع على ما في هذا البلد من خيرات وخزائن وجواهر وتحف، فكان الأمر عجباً وكان البلد آية في الجمال والخصب والثروة وكثرة الترف، وكثرة الجواري الحسان والفتيات البارعات في الجمال، والسلطان مظفر مطرق رأسه غاضٌّ بصره، لا ينظر لا إلى هذا المال ولا إلى هذا الجمال، فقال له محمود وهو يمر بصديقه أمام الأميرات والحشم وبين الزوجات والحرم، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيينه بثغور بواسم: مالك يا سيدي لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى هذا المنظر!؟ فقال المظفر: إنه لا يحل لي يا محمود وقد قال الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فقال الملك الذكي: إنهن إمائي وأنا عبدك، قد أسرتني وملكتني بإحسانك، فهم عبيد وهن إماء لك مرتين، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق، وعرف أن ما حرَّمه الله لا يُحِلُّه أحد.

---

(١) معنى الحديث.

www.abulhasanalinadwi.org

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه وعفة باطنه وروحه، وشدة خضوعه لتأثير الإسلام ولتأثير المثل العليا الإسلامية التي نشأ على حبها والتمسك بها في حياته.

إنه رجل يغيب نسبه الإسلامي بعد واسطتين أو ثلاث في دياجير الكفر والجاهلية الهندية، ويفقد المؤرخ النسَّابة الأسماء الإسلامية بعد جده الذي أسلم في أيام (فيروز تغلق) في القرن الثامن الهجري، وتفاجئه أسماء عجمية هندية، لا يعرف أصلها ولا يفهم معناها، **فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع إلا في مدرسة محمد ﷺ التي دخلها مخلصاً جاداً مقدراً للإسلام نعمته، ولمحمد ﷺ فضله ورفده، مقبلاً على هذا الدين بشغف وإجلال، كارهاً للدين الذي كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته.**

إنتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كل الأمم وفي جميع العصور:

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجبة المنتجة من أبناء كرام بررة في بلاد الشرق والغرب، وفي بلاد العرب والعجم، وفي قرون متقدمة ومتوسطة ومتأخرة، وكم لهؤلاء الأبناء البارين العظماء من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم في كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية، وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها في فترة طارق، وشهامة محمد بن القاسم، وهمة موسى بن نصير، وذكاء أبي حنيفة والشافعي، وصلابة مالك وأحمد بن حنبل، وكرم نور الدين، وعزم صلاح الدين، وعبقرية الغزالي، وروحانية عبد القادر الجيلاني، وتأثير ابن الجوزي، وطموح محمد الفاتح، ومغامرات محمود الغزنوي، ورقة عاطفة نظام الدين الدهلوي، وسماحة (فيروز شاه) الخلجي، وتبحُّر ابن تيمية الحراني، وحسن إدارة (شيرشاه) السوري، وقوة إرادة (أورنك زيب) التيموري، وفي معارف شرف الدين يحيى المنيري، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السرهندي، ودعوة محمد بن عبد الوهاب التيمي، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين والعلماء الربانيين، وإنّ الفضل في كل هذه العبقرية وفي مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها، وإلى العهد

www.abulhasanalinadwi.org

الزاهر الجديد الذي افتُتح ببعثة محمد ﷺ، ووجدت فيه المواهب الإنسانية الفائقة سبيلها ومجال نشاطها، ووُجد من يستخدمها وينتفع بها، ولا تزال هذه المدرسة ـ مهما قسا عليها الزمان وتنكَّر لها المتنكرون ـ تُنجب أفذاذاً في التاريخ وتؤتي أُكُلها كلَّ حين بإذن ربها، وتغيث الإنسانية بقادة مخلصين، وعلماء ربانيين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولسان الغيب يهتف: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة السابعة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخِر الرُّسُل وَخاتم النَبيّين (١)

دين يبلغ نقطة الكمال وأمة تضطلع بأعباء خلافة النبوة:

تمَّت إرادة الله العليمة الحكيمة، القادرة القاهرة، في البلوغ بهذا الدين ـ الذي سمَّاه الإسلام ـ إلى حيث أرادته حكمته ورحمته، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان، وبلَّغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وربَّى أمة تقلدت مهام النبوة ومسؤولياتها من غير نبوة، وكلفت النهوض بالدعوة، وصيانة الدين من التحريف، والوصاية على العالم، والحسبة على البشرية في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتحقق في علم الله وفي قضائه وقَدَره وجود خلفاء الرسل، وأئمة الهدى، وطواد في العلم واليقين، ينفون عن هذا الدين في كل زمان «تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، وأخبر بذلك لسان النبوة فقال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1].

إعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد ﷺ وانقطاعها بعده:

ولما تحقق كل ذلك في عالم التكوين والتشريع ـ وقد سبق به علم الله

---

(١) رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه.

www.abulhasanalinadwi.org

وقضاؤه ـ أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع، وما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة، بالنبي الذي يأتيه الوحي من الله عن طريق جبريل (الروح الأمين) خاصة، والملائكة عامة[1]، وذلك معنى النبوة، فيقول الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى: ٥١][2]، ويقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٣ـ٧]، ويقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ويقول: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٥].

أما العلوم الوجدانية والتلقائية، والحِكَم والمعارف، وبعض الأخبار التي يُلْهَمَها بعضُ النفوس الزكية، أو أصحابُ الرياضات والمجاهدات والغواصون في العلوم والحقائق، وما قد يسمعه بعض الناس من هواجس ونداءات غيبية، فليست من النبوة في شيء، وقد يسمعها بعض أصحاب الرياضات من غير المسلمين، وقد استفاض ذلك، فإنكاره من المكابرة، وليست دليلاً للهداية،

---

(١) يظهر من تتبع الآيات القرآنية والسنة الإلهية فيما يختص بالأنبياء المرسلين، أن جبريل هو الواسطة غالباً، وفي عامة الأحوال بين الله تبارك وتعالى وبين الأنبياء في وحي النبوة والشرائع، وتدل على ذلك دلالة واضحة الآيات التي نقلناها، ولكن أكثر المتكلمين ومن صنَّف في العقائد لم ينوِّهوا بكون جبريل هو الواسطة الغالبة في شأن النبوّة والرسالة، واقتصروا على ذكر الوحي.

(٢) وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بقوله: ويرسل رسولاً (الملَك).

www.abulhasanalinadwi.org

فضلاً عن النبـوة والرسـالة، وقد صح في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسـرائيل رجال يُكلَّمـون من غيـر أن يكونوا أنبياء»[1]، وأعلن أن النبوة قد خُتمت بمحمد ﷺ.

وذلك كله في عبارات صريحة مكشوفة، لا يتطرق إليها شك، ولا ترتقي إليها شبهة، ولا يجد متسعاً للنقاش فيها، وإثارة الشكوك حولها، إلا مَن في قلبه مرض، أو كان له غرض.

أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة:

واتخذ القرآن لذلك أساليب متنوعة بليغة، عميقة الأثر في النفس، كبيرة القيمة عند العقل.

منها ما يختص بصاحب الرسالة الذي ختم به الأنبياء، وانتهت عليه سلسلة النبوءات، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد اسـتخدم القرآن لغرس هـذه العقيدة والفكرة لغة وتعبيرات أَلِفَها العرب الذي نزل في لغتهم القرآن، وكُلِّفوا

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في مناقب عمر رضي الله عنه.
وقد صرح الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (م٦٣٨هـ) بأن إلهام الأولياء، وأصحاب الرياضات محصور في العلوم والأخبار، لا في الأحكام والشرائع، وما كان من ذلك فلا يُعتمد عليه، ولا يُعبأ به أصلاً، (راجع «الفتوحات المكية» باب ٣١٠: ٣/ ٥٠، وباب ٣٨٣: ٢/ ٨٢٣).
وقال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية (م٧٢٨هـ) في كتاب النبوات بعد ما ذكر أن الوحي يتناول وحي الأنبياء وغيرهم، كالمحدثين الملهمين: «فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام، وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء إلخ، ص٦٧.
وقد توسع في هذا الباب محققو الصوفية، وأئمة المعرفة والتحقيق، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب القوم، وخاصة رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٣٤هـ).

www.abulhasanalinadwi.org

فهمه، ثم تبليغه إلى العالم، وهي اللغة التي كانوا يتفاهمون بها، ويقضون بها حاجة في نفسهم، ولم تكن في لغتهم ـ على سعتها وغناها ـ كلمة أدل على مفهوم الانتهاء والإكمال من كلمة (الخاتم) وذلت به ألسنتهم في حديثهم وشعرهم، ولا تعرف لغتهم للخاتم والختام والختم معنى غير ما أراده القرآن من أن رسول الله ﷺ هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا نبي بعده»[1].

صفات لا تليق إلا بالنبي الخالد والرسول الخاتم:

وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذي ختم به الأنبياء بصفات تشير إشارة بليغة إلى خلود رسالته، وكونه قدوة صالحة، وأسوة حسنة، في كل عصر وجيل ولكل طبقة من الناس، من غير تقييد بزمان أو مكان، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وليس من عادة العقلاء، والأدباء البلغاء ـ فضلاً عن العليم الخبير، علاّم الغيوب ـ أن يسبغوا على ملك راحل وسلطان زائل نعوتاً وألقاباً لا تليق إلا بمن استقر حكمه، واستتب أمره، وليس من عادة الحكماء الذين ينظرون في عواقب الأمور، ويَزِنُون الكلام وزناً دقيقاً أن يبالغوا في التهنئة على مولود عرفوا أن حياته قصيرة وأنفاسَه معدودة[2].

---

(١) راجع (لسان العرب) لابن منظور؛ و(صحاح العربية) للجوهري؛ و(المحكم) لابن سيده؛ و(القاموس المحيط) للفيروز آبادي؛ وشرحه (تاج العروس) للزبيدي؛ والمراجع اللغوية وكتب التفسير المعتمد عليها.

(٢) لذلك أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون إسحاق هو الذي أمر أبوه إبراهيم بذبحه، فإن ذلك يتنافى مع حكمة الله تعالى في التبشير ببقاء ذريته، وقد قال كما نقله تلميذه ابن القيم: «وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشّر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال الله تعالى عن الملائكة إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: =

www.abulhasanalinadwi.org

القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك؟

ولما كان محمد ﷺ هو القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعاً، وللأجيال البشرية على اختلاف الزمان والمكان، اتجهت عناية الله إلى حفظ أخباره وآثاره وصفاته، وأخلاقه وعاداته وتصرفاته، وصرف الله قلوب المسلمين إلى تتبع كل ما يصدر عنه من حركة وسكون، وأخذ ورد، وعادة وعبادة، وألهمهم الاعتناء به اعتناءً لا مزيد عليه؛ كأنَّ سائقاً يسوقهم إلى ذلك.

وقد تجلّت هذه العناية الإلهية بكل وضوح في الحديث والسيرة، وفي كتب الشمائل، وفيما أُثِر عن الوصَّافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته، في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفة أكثر منها دقة، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية، والدقائق الخَلقية. ولنظرة عابرة في شمائل الإمام أبي عيسى الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ) ـ على سبيل المثال ـ تكفي للإيمان بأن هذا الاهتمام البليغ الخارق للعادة بتسجيل دقائق الخَلق والخُلق، والعادات والعبادات، والأقوال والأفعال، وكل ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالاً يتصوره الذهن الإنساني، وفي بسطٍ وتفصيلٍ لا نظير لهما في سِيَر الأنبياء ولا في تاريخ العظماء[1] لم يكن مجرد مصادفة، ولا وليد الاتجاه الشخصي، والعمل الفردي، وكذلك من تصفح كتاب (الأدب المفرد) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) الذي خصه مؤلفه العظيم، بما ورد في الآداب الإسلامية، ومكارم الأخلاق، وحسن العشرة والاجتماع، وحقوق الصحبة،

= ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمره بذبحه» (زاد المعاد: ١/ ١٦).

(١) وقد عني علماء الأمة الإسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية والتراتيب الإدارية، والحرف والصنائع، والمتاجر والمناصب، وأنواع العلوم والمشخصات التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية النبوية عنايةً لا مثيل لها في أمم الأنبياء السابقين، وحسب القارئ أن يقرأ كتاب (التخريج) لأبي الحسن علي الخزاعي التلمساني (٧١٠ ـ ٧٨٩هـ) وتهذيبه وتكميله للعلاّمة الشيخ عبد الحي الكتّاني الذي سمّاه (التراتيب الإدارية)، وهو موسوعة في كل ما تهم معرفته عن عصر الرسول ﷺ والحياة فيه.

www.abulhasanalinadwi.org

وتهذيب النفس، وأدب الحياة، معتمداً في كل ذلك على ما صح عن الرسول ﷺ، ونقل عنه؛ عَلِم عِلم اليقين، أنها لم تكن فلتة من فلتات الدهر، إنما تقدير العزيز العليم؛ ليتحقق العمل في كل عصر وجيل، بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولئلا يكون لمتعلل بانقراض الآثار، وانقطاع الأخبار عذر في ترك الائتساء والاقتداء، كما هو الشأن في قضية الأنبياء الذين لم يبق لبعضهم إلا الاسم أو أخبار مبتورة لا تكفي للاقتداء والاقتفاء.

أما الحديث النبوي فيصح أن يسمى (سجل الوقائع اليومية) وشبه مذكرات ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبي ﷺ ـ بعدما أكرمه الله تعالى بالنبوة ـ على ظهر الأرض، تُرينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش في هذه الحياة، وكيف كان يقضي نهاره وليله، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق، والعادات والميول والرغبات، والقول والعمل ما لا نعرف عن كثير من الشخصيات التي عاشت قريباً، بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً، وهو مجموع صور ناطقة يعترف بها الإنسان بنبيه، ويسعد بصحبته، ويتبرك بأنفاسه، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وعاش معه؛ وكان ذلك أبعث على الاقتداء، وأبعد عن مضار الوثنية، وعبادة التماثيل مما جرت عليه الأمم القديمة، ومن تصوير أنبيائها ونحت تماثيلهم.

وحسب القارئ أن يقرأ قصة حجة الوداع في كتب الحديث، فقد سجل الرواة فيها كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكل حادث من حوادثها التي لا تسترعي الانتباه، وليست لها قيمة تاريخية كبيرة، ولا يُحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء والملوك والأمراء، والعلماء والنبغاء[1].

---

(١) اقرأ في كتب الصحاح تفاصيل تطييب رسول الله ﷺ في حجة الوداع عند الإحرام، وإشعاره لهديه، واحتجامه، وتحديد مكانه من الجسم وموضعه من الطريق، وتحديد المنازل بين المدينة ومكة، ولم يفت الراوي أن يقيِّد خروج حية ليلة منى، وإفلاتها من القتل، وأسماء من كان رديف رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، بل ومَن أردفهم رسول الله ﷺ في حياته كلها.

www.abulhasanalinadwi.org

وبفضل هذه الثروة الحديثية استطاع المؤلفون الحاذقون في مختلف العصور والبقاع أن يؤلفوا للمسلمين كتباً تكون دستوراً كاملاً لحياتهم، حتى إذا أراد المسلم ـ مهما كانت مهنته وطبقته ـ ألا يخطو خطوة ولا يبت في أمر ولا يمارس نشاطه إلا في ضوء الهدي النبوي أمكنه ذلك، والكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع كثيرة، وفي أكثر لغات العالم الإسلامي، وهي بين بسيط ووسيط ووجيز، أحسنها (زاد المعاد في هدي خير العباد)[1] للعلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المشهور بابن قيِّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، وأحد أعلام الأمة.

ويتجلى هذا السر الإلـٰهي في وضوح هذه السيرة وخلودها، وكونها بمتناول المؤتسين والمقتدين، إذا قارن الإنسان بين هذه السيرة وبين سِيَر الأنبياء السابقين وحياتهم؛ فأكثرها تـوارت في ظلمات الجهل والإهمـال والحوادث التـاريخية الدامية، وقد أدت رسالتها في فترة زمنية خاصة، ومشى في ضوئها الجيل الذي كُلِّف اتِّباعهم، ثم لم تبقَ حاجة إلى الاحتفاظ بها، وإلى أن تتوارثها الأجيال، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فكان آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، وتنتسب إليه أمة عُرف شغفها بالعلم والتأليف، وإفراطها في حب نبيها، وإطراؤها له إطراءً بلغ حد التـأليه والتقديس، ولكنها لم تسـتطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكوّن هيكلاً من حياة بشرية كاملـة يقلده الإنسان في حياته الفردية أو يسير في ضوئه مجتمع فاضل، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام، أن (العهد الجديد) يتضمن أخبار السـنوات الثلاث الأخيرة من سـيرة المسـيح وأخباره، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار

---

(١) قد صدرت للكتاب عدة طبعات في مصر والهند، وأمامنا طبع المطبعة الميمنية بمصر (١٣٢٤هـ)، وقد تم الكتاب في مجلدين ضخمين، وفي ٩٢٦ صفحة بالقطع الكبير والحرف الدقيق، والكتاب مكتبة في السيرة والحديث والفقه، وقد تلقّاه العلماء في كل عصر بالقبول.

www.abulhasanalinadwi.org

خمسين يوماً من حياته، لا أكثر ولا أقل[1].

أما الأنبياء الآخرون، وعظماء الملل والديانات السابقة، فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة في ركام الماضي، وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ، ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد مفقودة، لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها في هذا العصر المتأخر[2]، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء، فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعية وحيوية محدودة، فإذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها، أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة فبقي على اختلاف الزمان والمكان، واستمر وانتشر وأورق وأثمر.

صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد ﷺ، وما يتصل به:

ومن قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النبي ﷺ في سورة الأحزاب، وفي سورة الحجرات، وفي سورة التحريم، وفي سورة المجادلة، وما ورد من تكريم الله تعالى له ونِعَمه عليه في سورة الفتح، وسورة الضحى والانشراح، عرف بدلالة العقل وسلامة الذوق أنها نعوت نبي قد بُعث للأجيال كلها، وللعصور كلها، وأن شمس رسالته لا تقبل الكسوف وأن نجمه لا يقبل الأفول، ولا شك أن بعثة نبي ـ ولو لم يأت بشريعة جديدة ـ تتنافى مع الحكمة الإلهية في هذا الثناء العاطر، والوصف البالغ لمحمد ﷺ، وربط الأمة ربطاً وثيقاً دائماً بهذا النبي الكريم، وتعاليمه وأسوته، وأصحابه وأهل بيته، والأرض التي ولد فيها ونشأ، ودعا فيها الناس إلى الله، وشعائر الله فيها، ولا شك أن النبي الذي يبعث بعده،

---

(١) يقول القس الفاضل الدكتور (شارلس أندرسن اسكات) في مقال له في دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الرابعة عشرة: ١٣/ ١٧١٠: «ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتاب في سيرة المسيح بكل صراحة، فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً».

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيّم (الرسالة المحمدية) للعلاّمة السيد سليمان الندوي، المحاضرة الثانية والثالثة والرابعة.

www.abulhasanalinadwi.org

أو يدَّعي النبوة، يحول بين الأمة ونبيها الأول، أراد ذلك أو لم يرد، ويضعف صلتها به ـ ﷺ ـ شعر بذلك أو لم يشعر، وتلك طبيعة الأشياء، وخاصة الفطرة البشرية، وقد أثرت عقيدة الإمامة عند الشيعة الإمامية في صلة هذه الطائفة بالنبي ﷺ، فتحول تيار الحب والعاطفة والحماس، والاندفاع إلى الأئمة الاثني عشر ـ رحمهم الله تعالى ـ وتجلى ذلك في مجال التأليف والتصنيف، والأدب والشعر، وشد الرحال إلى المشاهد والهيام بها، وأصبح الولاء للأئمة، والحب لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وابنه الحسين هو شعار هذه الطائفة ودثارها، قد ملأ كل فراغ في العقيدة والعاطفة والحماس، فما ظن العاقل بنبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها، في عصر من العصور، ألا ينافس الولاء له، والانضواء إلى رايته، حب الأمة لنبيها محمد ﷺ، وكل ما يتصل به ويعزى إليه من تعاليم، وسنن وهدي، وأصحاب ولغة وآداب، وتاريخ وحضارة، إنه ناموس من نواميس الفطرة التي لا تتغير.

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة، ودل عليه القرآن، ونطقت به السنة المتواترة، فقد جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1] ويقول القرآن: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضي ذلك:

ومن هذه الأساليب القرآنية ما جاء في وصف الرسالة التي حملها الرسول ﷺ إلى الخلق أجمعين، والشريعة التي جاء بها، فهي من أكبر الأسباب والدواعي لهذا الإعلان الصارخ، والمبرر ـ بل الموجب ـ لانتهاء سلسلة النبوءات والرسالات السماوية على محمد ﷺ، فصرح القرآن بلسان عربي مبين، لا غموض فيه ولا لغز، بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال، والوفاء بحاجات البشر،

---

(١) رواه الشيخان والنسائي، وفي بعض الروايات «من نفسه» (الطبراني في معجميه الكبير والأوسط).

www.abulhasanalinadwi.org

والصلاحية للبقاء والاستمرار فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة، ولم ينزل بعدها ـ كما تقول أكثر الآثار ـ حلال ولا حرام، ولم يعش رسول الله ﷺ بعد هذا اليوم إلا إحدى وثمانين ليلة، وقد فهم كبار الصحابة ـ الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين، ومقاصد التشريع وأقرب الناس إلى صاحب الرسالة ﷺ، وأعظم الناس حباً له، وحرصاً على بقائه، وكان في مقدمتهم أبو بكر وعمر ـ دُنوَّ ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله ﷺ، ولحوقه بالرفيق الأعلى، فقد بلَّغ رسالة الله وكمَّل الدين، وتمت نعمة الله على عباده، فمنهم من بكى، ومنهم من تنبأ بدنو هذه الساعة[1] وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم وتاريخ الديانات، أنها كرامة خص بها المسلمون، ومفخرة لهذا الدين، لا يشاركه فيها دين آخر، ورأوا أن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جدير بأن يخلَّد، ويحتفل به على مر العصور، ويبدي فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم[2].

وهكذا فهمها رسول الله ﷺ، وهو الذي نزلت عليه هذه الآية، فقال في خطبته يوم حجة الوداع، ينصت إليها أكثر من مئة ألف إنسان ويحفظونها: «أيها الناس إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم»[3].

وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قُدِّر له البقاء، والغلبة والانتشار، وأن سيبلغ ذروة المجد والعزة، وتعلو كلمته، ويمتد ضوؤه، ويتبين صدقه،

---

(١) راجع كتب الحديث والسيرة وكتب التفسير.

(٢) راجع صحيح البخاري كتاب التفسير؛ والصحيح لمسلم؛ وجامع الترمذي؛ وسنن النسائي؛ ومسند أحمد؛ وراجع تفسير ابن كثير.

(٣) أخرجه ابن جرير في (تهذيب الآثار)؛ وأخرجه ابن عساكر (كنز العمال: ٥/ ٢٩٥، طبعة حلب).

www.abulhasanalinadwi.org

فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، وكل هذه الكفالات، والضمانات والنبوءات والإعلانات، تدل بدلالة النص وإشارته على أن هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة، وحاجة البشرية كلها، على اختلاف العصور والأمصار، وأن الله هو بالغ أمره فيه، كره الناس ذلك أو أحبوه، وسالمه الحُسَّاد والمعارضون أو حاربوه، وكل ما كان ذلك شأنه، ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة، والتحديات البالغة في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير، أو يحتاج إلى نبي جديد، ورسول مبعوث.

عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات، واستغناؤها عن تطوير وتعديل:

وكانت الديانات السابقة، والرسالات القديمة بعضها محدودة في شعب أو مختصة بإقليم، أو خاصة بفترة زمنية قصيرة أو طويلة[1]، ولم تكن الديانة اليهودية في زمن من الأزمان دعوة عامة للخلق، ولم يكلف اليهود ـ في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة ـ تبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً، بل وردت نصوص تمنع عن ذلك، وتحصر نشاطهم الدعوي في نطاقهم العنصري المحدود، وكان من الطبيعي والمعقول جداً أن يميّزوا دائماً بين بني إسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى، وأن يضعوا للخير والشر، والبر والإثم مقاييس مختلفة، تختلف باختلاف السلالات والشعوب.

---

(١) وقد وردت في (العهد القديم) نصوص وتصريحات بأن رسالات أنبياء بني إسرائيل كانت موقتة ومختصة بزمان خاص، اقرأ على سبيل المثال (١٨: ١٥) (١٨: ١٨) و(٣٣: ١ ـ ٢) من سفر التثنية في التوراة، ونبوءة أشعياء الإصحاح ٤٠، وسائر أسفار بني إسرائيل والزبور، والأناجيل مملوءة بمثل هذه النصوص.

www.abulhasanalinadwi.org

تقول السيدة الفاضلة المهتدية (مريم جميلة) (Marqaret Mareus) اليهودية سابقاً في كتابها (الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً) باللغة الإنجليزية: «ليس أن اليهود لا يبلغون دينهم إلى غيرهم عملياً، بل إنهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عدد كبير، كان ذلك مرة في اليمن في زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون، ومرة ثانية لمّا اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتارية الأصل التي عاشت مدة قصيرة في روسيا»[1].

ويدل على ذلك دلالة واضحة الأسلوب الذي أُلّف فيه (العهد القديم) الموجود في أيدينا اليوم، والروح التي تسيطر على كل سطر منه، فيشعر القارئ لهذا الكتاب بأنه يطالع ملحمة اليهود، أو كتاب مناقب اليهود، أو كتاب الأنساب الخاص بهم، ولا يجد فيه من تعليمات خلقية وروحية، ومن حثّ على مكارم الأخلاق العامة، والمساواة بين البشر، والاعتراف بكرامة الإنسان، وحث على الزهد، وتهذيب النفس وإيثار الآخرة على الدنيا، واللهج بذكر الجنة ونعيمها، والتخويف من النار وعذابها، ما يهذب النفس ويرقق القلب، ويشعره بكرامته ومسؤوليته إذا كان ينتمي إلى سلالة غير إسرائيلية، فالكتاب بقصصه وأخباره وأحكامه يدور حول اليهود الذين يعتبرهم دينهم وكتابهم (شعب الله المختار).

وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصة لبني إسرائيل، وقد صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة[2]، واقتصرت رسالته على قراهم وأرضهم، والمنسوبين إليهم، ولمّا لفت نظره إلى من يتصل ببني إسرائيل بنسب أو بقرابة فاستعطف عليه، قال: «إنني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد، للكلاب».

أما أمر الديانات الشرقية الآسيوية، كالبرهمية الهندية وما شاكلها، فأمرها

---

(١) Islam Verses Ahalkitab past and present 22 - 23.

(٢) راجع إنجيل متّى، الإصحاح العاشر ٦ ـ ٧.

www.abulhasanalinadwi.org

أدهى وأمر، وكانت تعتبر في غالب الأحيان غير الآريين وغير البراهمة أنجاساً مناكيد، وتساوي بينهم وبين الدواب، وتعاملهم أحياناً معاملة الكلاب[1].

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده تقتضيان بعثة نبي جديد، يحمل تعاليم جديدة، وتعديلات في الشرائع والأحكام، اقتضاها تغير الزمان والمكان، والأحوال والظروف، واقتضاها بعض الحوادث، فتتناول التسهيل أحياناً، وتحليل ما حرمه المتدينون الغلاة، أو تحريم ما أحله المتوسعون المتنعمون، أو السلاطين المترفون، فيقول سيدنا عيسى بن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقد أعلن القرآن انتهاء هذين الموجبين لنبوة جديدة، أما ما يتصل بعموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب، وطبقات الناس جميعاً، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة صٓ: ٨٧][2].

فالدين الإسلامي حق مشاع، وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكار مثل احتكار بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، لا يتميز فيها شعب عن شعب، ولا نسل عن نسل، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم، بل الاعتماد فيه

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) الباب الأول، الفصل الأول، عنوان: نظام الطبقات الجائر، ص٥٨، وامتيازات طبقة البراهمة، ص٥٩؛ والمنبوذون الأشقياء، ص٦٠.

(٢) وفي هذا المعنى آيات أخرى.

www.abulhasanalinadwi.org

على الحرص والشوق، وحُسن التلقّي، وزيادة التقدير، والتفوّق في الجهاد والاجتهاد، والدين والتقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأعلن النبي ﷺ يوم فتح مكة: «الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[(١)]، وروى الإمام أحمد بن حنبل[(٢)] بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس»[(٣)].

وأما ما يتصل بالحاجة إلى التغيير والتسهيل، فصرح بأن هذه الشريعة قد جاءت سهلة سمحة، توافق الفطرة المستقيمة والعقول السليمة في كل زمان، فقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

إن التشريعات المجحفة، والقيود المرهقة ـ من تحريم ما أحل الله، وتضييق ما وسّع الله فيه ـ التي أخذت بها الأمم السابقة نفسها، والتزمت ما لم يلزمها الله به، كانت كدرت عليها صفو الحياة، وعقّدت الدين وجعلته عبئاً ثقيلاً لا يطاق حمله، وجاءت النبوة الأخيرة، والشريعة السمحة الحنيفية، فأزالت هذه القيود والأغلال التي كانت من اختراع العبّاد الغلاة، والمشرّعين القساة، وأعادت الأمور إلى نصابها، يقول القرآن في وصف هذا النبي الذي ختم الله به الأنبياء، وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً:

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) رواه الترمذي وغيره.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢/ ٩٦.

(٣) قد بسط شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية في كتابه النفيس (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) دلائل عموم البعثة المحمدية من القرآن والحديث، والآثار والأخبار (الجزء الأول، ١٢٦/ ١٤٠ و١٦١/ ١٦٦، فليراجع.

www.abulhasanalinadwi.org

وذكر أن كبار العقلاء والمشرّعين لو حاولوا مراعاة الحاجة البشرية، والأحوال المختلفة لم يبلغوا حيث بلغ علم الله المحكم، فقال في آيات المواريث: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، ويقول في سياق آيات الزواج وما للزوجين من حقوق وفرائض: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ:

ومازالت الصحف السماوية السابقة للقرآن عُرضة للتحريف والتبديل والضياع والتلف، فإن الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظها وبقائها، بل أسند ذلك إلى علمائها وحملتها، ولم تحتجْ إليها البشرية أو الأمم التي خوطبت بها إلا لفترة من الزمان، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد ثبت ذلك تاريخياً، وتواتر، وأقرت به الأمم والطوائف التي نزلت فيها هذه الصحف، وقد استُهدفت صحف العهد القديم للتلف والإحراق والإبادة بصورة واضحة، وباتفاق المؤرخين اليهود ثلاث مرات في التاريخ:

المرة الأولى: حين زحف (بختنصر) (Nabuchodonosor) (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) ملك بابل على اليهود سنة (٥٨٦ ق.م)، وأشعل النيران في بيت المقدس الذي حفظ فيه النبي سليمان عليه الصلاة والسلام ألواح التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وأخذ من سَلم من القتل من اليهود أسيراً إلى بابل حيث مكثوا فيه خمسين سنة، وقد أعاد (عزرا) الصحف الخمس الأولى التي تسمى (تورة) بحفظه، وقيَّد الحوادث في أسلوب تاريخي، ثم ضم إليها (نحميا)

www.abulhasanalinadwi.org

السلسلة الثانية من الكتب، مضيفاً إليها زبور داود.

والمرة الثانية: حين كرّ (أنطيوخوس) (Antiochus) الرابع الملقَّب (أبيقانس) ملك أنطاكية اليوناني على بيت المقدس (سنة ١٦٨ ق.م) وأحرق الصحف المقدسة ومنع من تلاوة التوراة، وممارسة الشعائر اليهودية رسمياً، ونشط يهودا المكابي في جمع الصحف المقدسة وترتيبها، وضم إليها السلسلة الثالثة من صحف (العهد القديم).

والمرة الثالثة حين هجم (تيطس) (Titus) الإمبراطور الروماني (٤٠ ـ ٨١م) على بيت المقدس في ٧ من سبتمبر سنة ٧٠م ودمره بما فيه هيكل سليمان وحوَّله إلى أنقاض وخرائب، واستولى على الصحف المقدسة، ونقلها إلى بلاطه في روما تذكاراً للفتح، وأجلى اليهود من القدس، واستعمر غيرهم حول المدينة[١].

ومقاييس حفظ الصحف المنسوبة إلى الأنبياء المستفادة من الوحي وبقائها على أصالتها ونصوصها، ووجهة نظر أصحابها إليها، تختلف عن مقاييس المسلمين، وعقيدتهم عن الكتاب المنزل من الله تعالى على محمد ﷺ اختلافاً كبيراً، فلا يمنع دخول بعض زيادات وتعديلات في هذه الكتب عن إضافتها إلى الوحي، وتسميتها بالصحف السماوية عند اليهود، وقد لا يتحرجون من إضافة تأليفها إلى الأنبياء، فقد جاء في مختصر دائرة المعارف اليهودية ما يلي:

«إن الأخبار اليهودية وإن كانت تلح أن صحف العهد القديم من تأليف (الأبطال)، أو الشخصيات التي تتحدث عنها هذه الصحف، وذلك لا يبعد عن الصواب، ولكنهم لا يتحرجون في الإقرار بأن بعض هذه الصحف تناولها التعديل والزيادة في العهود المتأخرة»[٢].

وجاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

---

(١) راجع كتب تاريخ الصحف المقدسة؛ وراجع دائرة المعارف اليهودية، وقد وردت إشارات إلى هذه الحوادث في سفر نحميا وسفر المكابين وغيرها.

(٢) Vellentin's one volume jewish Encyclopaecia London p. 93

www.abulhasanalinadwi.org

«إن الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة، من تأليف النبي موسى، باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى، وما زال الربِّيُّون يعنَون بتناقضات واختلافات وردت في هذه الصحف، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم»[١].

وتزيد هذه الموسوعة الكبيرة: (أن اسفينوزا) (Sphinoza) يقول: «إن الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ليست من تأليف موسى، بل هي من تأليف (عزرا)[٢]، وأن آخر ما وصل إليه البحث العلمي، هو أن هذه الكتب (الخمسة الأولى) ترجع إلى ثمانية وعشرين (٢٨) مصدراً، استقيت واستفيدت منها هذه الكتب»[٣].

أما أمر الأناجيل الأربعة التي تسمى (العهد الجديد) فأمرها أغرب من صحف العهد القديم، فإنه يكتنف تدوينها ومؤلفيها الشيء الكثير من الغموض والالتباس والاضطراب، وبينها وبين السيد المسيح (عليه الصلاة والسلام) هوة عميقة واسعة، ليس في إمكان باحث أو مؤرخ ردمها أو إقامة جسر عليها، وقد تعرضت للتحوير والتطوير، والتعديل والتحسين في مجامع دينية، وفترات زمانية عديدة، وبعد ذلك كله فإنه بكتب السيرة والأخبار والحكايات والآثار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله، المبنية على الوحي والإلهام، يعرف ذلك بداهة مَنْ أجال النظر فيها وتصفحها، ومن قرأ الكتب التي أُلِّفت في تاريخها والأدوار التي مرت بها[٤]، وهي لا تناهض كتب الحديث، ودواوين السنة عند المسلمين، من الطبقة الثانية والثالثة ـ فضلاً عن الصحاح ـ فإن هذه الكتب امتازت باتصال السند من

---

(١) Jewish Encyclopaedia V.9 P.589

(٢) ص٥٩٠ ملتقط من تفسير مولانا عبد الماجد الدريابادي بالإنجليزية.

(٣) المصدر السابق، ص٥٩٠.

(٤) اقرأ الكتب التي أُلِّفت في تاريخ العهد الجديد في اللغات الأوروبية بأقلام العلماء المسيحيين، واقرأ خلاصتها في كتاب (أضواء على المسيحية) لمؤلفه الفاضل الأستاذ متولي يوسف شلبي، نشر الدار الكويتية.

www.abulhasanalinadwi.org

أصحابها إلى رسول الله ﷺ، والحديث الصحيح عند علماء المسلمين ما رُوي بنقل عدل تام الضبط، متصل السند، غير معلل ولا شاذ[1]، أما الأناجيل فقد تجرَّدت عن جميع أنواع السند، فليس هنالك سند متصل من عصرنا إلى مدوّنيها ولا من مدوّنيها إلى سيدنا عيسى بن مريم.

وهذا كله زيادة على أن هذه الصحف التي بأيدينا اليوم ليست باللغة التي نزلت فيها، وكان يتكلم بها المسيح (عليه الصلاة والسلام) وقومه، بل نُقلت من لغة إلى لغة، وتناولتها أيدي المترجمين الناقلين حتى وصلت إلينا، وهي في الحقيقة بكتب السير والتاريخ، ومجاميع الأقوال والمواعظ ـ إذا لم نقل قصص المولد الكثيرة المنتشرة بين المسلمين ـ أشبه منها بكتب الحديث عند المسلمين، لذلك كان من الخطأ المقارنة بين هذه الصحف والقرآن، فإن المقارنة إنما تكون بين ما كان من جنس واحد وعلى درجة واحدة.

وقد أحسن العالم المستشرق المهتدي المسيو (إيتين دينيه) الفرنسي في وصف هذه الأناجيل وتحديد مكانتها العلمية والتاريخية، وكان دقيقاً في هذا الوصف، يقول:

«أما أن الله سبحانه قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته، ولغة قومه، فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع، واندثر ولم يبق له أثر أو أنه أُبيد؟

ولهذا قد جعلوا مكانه (تأليفات أربع) مشكوكاً في صحتها، وفي نسبتها التاريخية، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغة سامية، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود، وقرآن العرب»[2].

ثم هناك شواهد داخلية من أغلاط تاريخية صريحة، وتناقضات واضحة، وأمور مستحيلة، ينكرها العقل، ونسبة أشياء إلى الله لا تليق بجلاله وكماله،

---

(١) راجع للتفصيل ومعرفة أقسام الحديث وشروطها كتب أصول الحديث ومصطلح أهل الأثر.

(٢) نقلاً من كتاب (أضواء على المسيحية)، ص٥٢ ـ ٥٣.

www.abulhasanalinadwi.org

ولا تتفق مع صفاته التي اتفقت عليها الأديان السماوية والعقول السليمة، ومطاعن في أنبياء الله المكرمين، واتهامهم بأفعال وأخلاق يترفع عنها أوساط الناس، إلى غير ذلك من الشواهد الجلية الكثيرة العدد التي تدل على الدس والإلحاق والتغيير في كتب العهدين القديم والجديد، التي تسمى مجموعاً ببائبل (Bible) أو الكتاب المقدس[1].

أما صحف الديانات الأخرى التي تعتبر أعرق في القدم، وفيها صحف الهند العتيقة التي تدين بها الشعوب الهندية الآرية وتعتقد أنها نزلت من السماء، وأنها من كلام فاطر الكون ووحيه، فقد أحاطت بها هالات من الظلام والغموض، والجهل والأساطير، وجهلت العهود التي نزلت فيها والأشخاص الذين خوطبوا بها، ودخل في صلبها الشيء الكثير من الزيادات والتفسيرات، واندرست اللغات واللهجات التي نزلت بها، حتى أصبح الجزم بتحديد عهدها، والوصول إلى حقيقتها ومقاصدها، والتمييز بين أصولها وشروحها، شبه المستحيل، يقول أحد كبار العلماء المختصين في تاريخ هذه الصحف وهو الموسيو (A.Parth) عضو المجمع الآسيوي الملكي في باريس (The Societe- Asiatiqne of Paris) وهو يتكلم عن (ويدا) في كتابه (ديانات الهند):

«إن هذه الصحف لا تدّعي أنها من الله، ولا تحاول أن تخفي ـ بطريقة صناعية ـ عمرها، لقد دخل الشيءالكثير من الزيادات والتحريفات في صلب هذه الكتب وصميمها، وقد كان الدافع إلى ذلك الإخلاص وحسن النية[2]، ولكن

---

(١) اقرأ كتاب (إظهار الحق) الفريد في موضوعه للعلامة رحمه الله الكيرانوي الهندي المتوفى سنة (١٣٠٨هـ) المدفون بمكة المكرمة، وقد عد المؤلف ما وقع في الكتاب المقدس من اختلاف لفظي فبلغ ١٢٢ اختلافاً، وما عثر عليه من أغلاط لا تقبل التأويل فبلغ عددها إلى ١٠٨، راجع الكتاب.

(٢) لعلّه يعني أن الذين فعلوا ذلك كان غرضهم أن يُقبل عليها الناس قراءة ومطالعة، وأن يطبقوا بينها وبين روح العصر وثقافته، وهذا نفس ما وقع مع العهد القديم والجديد، وقد جنى ذلك على هذه الصحف جناية كبيرة، فقد ثبت بطلان النظريات والشائعات علمياً، ففقدت (الكتب المقدسة) قيمتها ومكانتها.

www.abulhasanalinadwi.org

رغم ذلك من الصعب تحديد عمرها، أو تقديره على الأقل، إن أجزاء (برهمنا) (Brahmana) التي كُتبت في آخر ما كُتب، لا تتقدم بداية عهدنا إلا خمسمئة سنة، أما بقية ما اشتملت عليه (ويدا) فهي موغلة في قِدم يصعب معه الجزم بشيء، أما ما كان أعرق منه في القِدم فمن المستحيل إبداء الرأي فيه»[1].

أما (أوستا) صحيفة المجوس الفرس، فلا يختلف شأنها عن شأن (ويدا)، ولعل نصيبها من البحث العلمي، والقيمة التاريخية أقل، والشبهات حولها أقوى، يقول (Robert.H.pfeiffer) رئيس فرع اللغات السامية في جامعة هارورد، في دائرة معارف الديانات، وهو يتحدث عن (أوستا):

«إن أصل (أوستا) كما تقول الحكايات كان جامعاً للعلوم، وقد أباد معظمه الإسكندر، وقد أُلِّف كتاب في القرن الثالث المسيحي مما تبقى من الكتاب كان يحتوي على ٢١ جزءاً تسمى (Nask) ولم يبق من هذه الأجزاء كلها إلا جزء واحد يسمى (Vendidad) وقد نقل جزء يتصل بالعبادات من هذا الكتاب إلى الهند بعد القرن التاسع المسيحي، وهو يتألف من خمسة أجزاء تسمى(Yasna) بما فيها (Khorda Avasta).(Vendid) (Vespered) (Gatha)»[2].

أما القرآن الكريم الذي كان آخر الكتب المنزلة من الله، ومصدقاً لها، ومهيمناً عليها، وعليه الاعتماد في هداية البشر، وربط الخلق بالخالق، والدعوة إلى الله بعد البعثة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فشأنه يختلف عن شأن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف، فقد تكفل الله بحفظه، وسلامته من كل تحريف وتبديل، وزيادة ونقص فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]، وكذلك تكفل بسلامته من مسخ وعبث، ومحو من الذاكرة وارتفاع عن صدور الناس، أو تعرض لنكبة تقضي عليه أو تبيده، كما وقع أكثر من مرة للتوراة فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهي الكفالة بحفظه وبقائه، وانتشاره وازدهاره وبقائه

---

(١) The Religiones of India. Delhi 1969p. 4-5

(٢) دائرة معارف الديانات، طبع نيويورك ١٩٤٥م، ص٤٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

متلوّاً مدروساً ومفهوماً وغير مهجور قد انقطع العمل به بتاتاً، وتنوسي، فكل هذا ـ من معان ولوازم وآفاق ـ مما تنطوي عليه كلمة (الحفظ) العربية البليغة.

ولما قضى الله ببقاء هذا الكتاب على أصالته ونقائه، وبنصه وفصه، كما نزل على محمد بن عبد الله ﷺ، سخر الله لهذا الغرض النفوس البشرية، والدواعي الطبعية، والأسباب الخارجية والحوادث الكونية، فكان لا يتحرك به لسان النبوة، ولا يدخل في الأُذن إلا ويتهالك المسلمون على تلقفة وحفظه وتلاوته وتدارسه، بدافع من الحب الذي جُبلت عليه القلوب، ولإعجازه وبلاغته، ورنينه وحلاوة جرسه، ثم بما وردت في فضل حفظته وحملته؛ من الآيات الكثيرة، والأحاديث المستفيضة المتواترة[1].

وقد قرنت حياة المسلمين به صلاة وتعبداً، وأحكاماً ومدنية واجتماعاً، وعلماً وأدباً، فبلغ تعلّق قلوب المسلمين به إلى حد الغرام والهيام، وكثر عدد حفاظه فيهم من أقدم العصور، فقد استشهد في وقعة بئر معونة التي كانت سنة ثلاث للهجرة سبعون رجلاً من المسلمين يقال لهم القراء[2]، وهكذا لم يزل عدد الحفاظ يتزايد بتزايد عدد المسلمين، وكثرة الدواعي إلى الحفظ وتنوعها، حتى وصل إلى حد يقضي منه العجب في مدينة صغيرة، وفي كل مجتمع إسلامي، ويتناقله المسلمون صدراً من صدر، ولساناً من لسان، ويبلغ منهم الإتقان لحفظه، والدقة في صحته، والبراعة في استحضاره والتنافس فيه، والشغف بقراءته والتعبد به إلى حد لا يصدقه من غير المسلمين إلا من عاشر المسلمين وعاش معهم، وعرف عوائدهم، وكان عدد هؤلاء الحفاظ يفوق الإحصاء في كل زمان، فضلاً عن هذا الزمان الذي لا يقل عددهم عن ملايين.

وقد ألهم الله خلفاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالحق،

---

(١) راجع على سبيل المثال رسالة (فضائل القرآن) للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوي.

(٢) راجع البداية والنهاية: ٤/ ٧١ وحديث بئر معونة حديث مشهور رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

www.abulhasanalinadwi.org

والقائمين بأمر المسلمين حين استحرّ القتل يوم اليمامة بالقراء، فخشَوا أن يكون في استشهاد القراء في المواطن الأخرى ضرر على بقاء القرآن إن كان جل الاعتماد على الحفظ، وقد بدا ذلك لعُمَر رضي الله عنه؛ الذي كان يسبق زملاءه الصحابة في التعرّف لحاجات المسلمين ومصالحهم، وكان يتوارد خاطره بمقاصد التشريع، فاقترح على أبي بكر وهو خليفة رسول الله ﷺ يومئذٍ، وخليفة المسلمين، جمع القرآن وكتابته، وكان مُفرَّقاً في الرقاع والعُسُب واللِّخاف[1] وصدور الرجال، وشرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، وكلف زيد بن ثابت؛ لاختصاصه بهذا الشأن، فقام بذلك خير قيام، معتمداً على المحفوظ في صدور القراء، والمكتوب لدى الكَتَبَة، وبقيت تلك الصحف محفوظة يرجع إليها، ويعتمد عليها، حتى آل الأمر إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث.

وقد اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرَّق القرّاء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمَّن وفد إليهم قراءته، وخشي على المسلمين الاختلاف والاضطراب في وجوه القراءة، واللحن بدخول العجم في الإسلام في عدد كبير، وخاف عقلاء الصحابة أن ينشأ عنه التحريف والتبديل، فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه بنسخ الصحف الأولى، التي نُسخت في عهد أبي بكر في المصاحف، وكتبت على القراءات المتواترة، وبعث عثمان إلى كل أفق بنسخة من المصاحف، واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى (الإمام)[2]، وهذه المصاحف هي التي تمسَّك بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وعليه درجت أجيالهم، وبها ذلَّت ألسنتهم، وحفظوا القرآن، وعبدوا الله به، وعليه الاعتماد في العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه، ومن السَّنَة الخامسة والعشرين التي كان فيها هذا الجمع الأخير إلى يوم الناس هذا، لا يشذ عنه شاذ، ولا يوجد عنه اختلاف

---

(١) العسب جمع عسيب: أي جريدة من النخل، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص، واللخاف جمع لخفة: حجارة بيض رقاق.

(٢) اقرأ تاريخ جمع القرآن وكتابته في الكتب التي أُلّفت في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، واقرأ خلاصتها في كتاب (مباحث في علوم القرآن) لصديقنا الفاضل الأستاذ منّاع القطّان. واقرأ الكتاب الممتع المفيد (النبأ العظيم) لمؤلفه الفاضل العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز.

www.abulhasanalinadwi.org

في مجتمع إسلامي أو في مكتبة أثرية[1]، وأجمع عليه المسلمون وتواتر منذ أن تم هذا العمل، وأطبق عليه المسلمون إلى هذا العصر الذي أصبح القرآن فوق متناول المحرِّفين والمغرضين والعابثين؛ لكثرة الحفاظ والعلماء المتقنين له، وكثرة التداول بين الناس، وكثرة الطبعات، وقد اعترفت الموسوعة البريطانية، بأن القرآن هو أوسع الكتب تلاوة على وجه الأرض[2].

وقد اتفقت كلمة المستشرقين، وعلماء الغرب المحققين ـ الذين لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزَّلاً من الله، ووحياً أُوحي به إلى محمد ﷺ ـ على صحة نقله وانتهائه بنصه إلى محمد ﷺ، وهنا بضع شهادات لكبار العلماء المسيحيين.

يقول (سير وليام ميور) (Ser Wilnam Muir) الذي عُرف تحامله على الإسلام، وصاحب رسالته، حتى اضطر ذلك زعيم حركة التعليم العصري في المسلمين في الهند (سيد أحمد خان)، مؤسس جامعة (عليكراه الإسلامية) إلى وضع كتابه الشهير (خطبات أحمدية) في الرد على كتابه (حياة محمد) (Life of Mohammed)، يقول ميور في نفس هذا الكتاب:

«لم يمض على وفاة محمد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة، وقامت طوائف، وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن، ولا تزال هذه الخلافات قائمة، ولكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد.

إن اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوة، برهان ساطع على أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم، هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها

---

(١) يقول (أي منجانا)(A.Mangana) أستاذ جامعة منشستر سابقاً: «إن هنالك نسخاً كثيرة مخطوطة للقرآن كلها في مكتبات أوروبا العامة، لعل أقدمها ما ترجع كتابتها إلى القرن الثاني الهجري، وهذه المخطوطات لا يوجد فيها اختلاف عدا هنات من الكتابة العربية التي هي من عيوب الخط العربي القديم» وقريباً من ذلك قال (نولديك) (Noeldeke) (دائرة معارف الأديان والأخلاق): ١٠/ ٤٩، ٥٤٨.

(٢) دائرة المعارف البريطانية، مادة (محمد).

www.abulhasanalinadwi.org

وكتابتها، فلعله هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظاً من التحريف طيلة ألف ومئتي سنة»[1].

ويقول (وهيري) (Wherry) في تفسيره للقرآن: ١/ ٣٤٩: «إن القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق عن الخلط والإلحاق، وأكثرها صحة وأصالة»:

ويقول (بامر) (palmer) مترجم القرآن المعروف إلى اللغة الإنجليزية في كتابه (The Quran introduction): «لم يزل نص القرآن الذي رتبه عثمان هي الصحيفة المتلقاة بالقبول، المعتمد عليها عند المسلمين»[2].

ويقول (لين بول) (lane poole):

«إن أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك إلى أصالته، إن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أي تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً»[3].

إذن فلم تعد حاجة إلى نبوة جديدة، تُزيل الالتباس، وتميز بين الحق والباطل، وتبين كذب المفتري، ولا إلى صحيفة تحل محل هذه الصحيفة المنسوخة التي عبثت بها الأيدي، واعتدى عليها المعتدون.

سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد:

وهذا الكتاب الخالد الذي هو الفرقان والميزان، والذي هو تبيان للناس، والذي لم يهمل أصلاً من أصول الدين، يتوقف عليه فلاح الدين والدنيا، وتتوقف عليه النجاة والسعادة، ساكت عن ورود نبي جديد، مع أنه كان من أهم المهام الذي لا يقبل الغموض والإبهام، فضلاً عن السكوت؛ فالكتاب الذي يذكر الشيء الكثير من أشراط الساعة، والحوادث التي تحدث في آخر الزمان، ويتحدث عن

---

(١) (Life of Mohammed) طبعة ١٩١٢، ص٢٢ـ٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٧٠.

(٣) Selections from the Koran p.c. هذه الاعترافات ملتقطة من تفسير مولانا عبد الماجد الدريابادي، بالإنجليزية.

www.abulhasanalinadwi.org

الدخان[1]، وعن الدابة[2]، ويأجوج ومأجوج[3]، من حوادث آخر الزمان، كيف لا ينبئ عن نبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها، ويهيِّئ العقول والنفوس ـ التي تنفر عن كل جديد، وتفر من التكاليف والمسؤوليات ـ للترحيب به وقبول دعوته، والانضواء إلى رايته، وقد عُرف اعتناء القرآن الزائد، واهتمام الرسول ﷺ البالغ بكل ما ينفع في الدنيا والآخرة، والتحذير عن كل ما يضر، ويعرِّض لسخط الله وعقابه، والحرص الشديد على أن يكون المسلمون على بينة من أمرهم، مستعدين لمواجهة ما يتحدى دينهم، ويفسد عقيدتهم، ويُغير على إيمانهم، وقد ذخرت كتب الحديث بالأحاديث الواردة في المسيح الدجال، وفتنته ومحنته، أيعقل من هذا الكتاب الذي هو تنزيل من حكيم حميد، ومن هذا النبي ـ الذي يصفه القرآن بأنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ـ أن يترك أمته في عماء وظلام، وجهالة مطبقة، وحيرة مردية، عن هذا الحدث الأكبر، والنبأ العظيم الذي هو أهم بكثير مما لهج لسان النبوة بذكره، وزخرت دواوين السنة بتفاصيله؟!.

الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة:

ثم لم يقتصر النبي ﷺ، على ما جاء صريحاً في القرآن عن كمال هذا الدين، وانتهاء سلسلة النبوة عليه، مما لا يدع مجالاً للشك لكلِّ مَنْ عرف اللغة العربية، ولم يبتلِ بفساد الذوق أو سوء النية، أو ابتغاء الفتنة، بل شرحه لأمته في وضوح لا وضوح فوقه، وفي بسط وتفصيل لا يتصور أكثر منه، وضرب لذلك الأمثال البليغة، وقد زخرت كتب الحديث بهذه الروايات التي وردت في معنى أن رسول الله ﷺ هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء[4] ونقتصر هنا على خمسة أحاديث

---

(١) ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١١].

(٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

(٤) قال العلاّمة السيد أنور شاه الكشميري شيخ المحدثين في عصره (م١٣٥٢هـ) في كتابه=

www.abulhasanalinadwi.org

وردت في الصحاح حتى يتبين الصبح لذي عينين:

١ ـ قال النبي ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلف نبي، وأنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء»[١].

٢ ـ قال النبي ﷺ: «إن مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي، كَمثلِ رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[٢].

٣ ـ إن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[٣].

٤ ـ قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»[٤].

٥ ـ عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «أنا محمد، أنا أحمد، وأنا

= (عقيدة الإسلام): «تواترت الأحاديث في ختم النبوة نحو مئتي حديث»، ص٣١٨ وقد جمع العلامة المفتي محمد شفيع الديوبندي كبير علماء باكستان الأحاديث الواردة في هذا المعنى في كتابه (ختم النبوة) فبلغت ٢١٠ حديثاً، وقد تزيد على ذلك عند المستقصين، وتكلم على هذه الأحاديث، وبحث فيها وفي أقوال العلماء والمتكلمين والأصوليين والصوفية العلامة محمود حسن خان الطوكي (م١٣٦٦هـ) مؤلف موسوعة (معجم المصنفين) في كتابه (معيار السنة لختم النبوة) وهو من أحسن ما قرأت في هذا الموضوع.

(١) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب، باب ما ذكر عن بني إسرائيل)؛ ومسلم في (كتاب الإمارة)؛ وأحمد في مسنده؛ وابن ماجه وابن جرير؛ وابن أبي شيبة.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب، باب خاتم النبيين)؛ ورواه مسلم وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه: مسلم، الترمذي، ابن ماجه.

(٤) رواه الترمذي في (كتاب الرؤيا، باب ذهاب النبوة)، وقال: هذا حديث صحيح، وقال ابن كثير في تفسيره: «أخرجه أحمد أيضاً».

www.abulhasanalinadwi.org

الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

إجماع الصحابة والأمة الإسلامية على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ، واستبشاعها ورفضها لهذه الدعوى:

وبسبب هذه الآيات البينات المحكمات، والأحاديث الصحيحة الصريحة ـ التي بلغت حد التواتر ـ أجمع الصحابة رضي الله عنهم ـ وإجماعهم أكبر دليل من دلائل الثبوت الشرعي ـ على انقطاع النبوة بعد النبي ﷺ، وأنه لا نبي بعده في كل مفهوم من مفاهيم هذه الكلمة العربية التي كانوا يحسنون فهمها، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب، والحكم بكفره وردته، لم يشذ منهم في ذلك شاذ، مع أن مسيلمة كان مُقرّاً بنبوة محمد ﷺ، وكان يؤذّن للنبي ﷺ، ويشهد في الأذان أن محمداً رسول الله[1]، وكان مؤمناً بالقرآن يرى العمل به فرضاً، وإنما كان يفسر القرآن حسب أهوائه، ويدّعي الإلهام، وكان يدّعي أنَّه أُشرك في نبوة محمد ﷺ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمدية، وكل من ادعى ذلك في العصور الأخيرة كان تابعاً له، وقد قُتل في حرب اليمامة ألف ومئتا رجل من خيار المسلمين، كما جاء في كتاب كتبه أبو بكر إلى خالد بن الوليد[2]، وقُتل الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ.

ثم أجمع المسلمون في كل عصر على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ، وأن كل من يدعيها مارق من الدين، متَّبع غير سبيل المؤمنين[3]، واستفاضت هذه

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٢٥٤.

(٣) قد نقل الإجماع على ذلك القاضي عياض (م٥٤٤هـ) في كتابه المشهور (الشفاء) وبسط القول فيه: ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢؛ والعلاَّمة الشهرستاني (م٥٤٨هـ) في كتاب (الملل والنحل): ٣/ ٢٤٩؛ والعلامة ابن نجيم (م٩٧٠هـ) في كتاب (الأشباه والنظائر): ص١٧٩؛ والعلامة ملا علي القاري (م١٠١٦هـ) في (شرح الفقه الأكبر)، ص٢٠٢؛ ومن كبار الصوفية الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتاب (اليواقيت والجواهر)، ص٣٥، وكل ما نُقل خلافه عن =

www.abulhasanalinadwi.org

العقيدة في العالم الإسلامي كله، وأصبحت جزءاً من عقائد المسلمين التي يدينون بها ويعضُّون عليها بالنواجذ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادِّعاء النبوة ولا تحتمله[1]؛ لذلك قلَّ عدد المتنبئين في المجتمع الإسلامي بالنسبة إلى اتساع العالم الإسلامي، وتفاوته في فهم الدين والتمسك به، وبالنسبة إلى عدد المسلمين الضخم، واضطراب الأمور فيهم، وبالقياس إلى كثرة الدواعي إلى هذه الادعاءات، بالعكس من الأمم السابقة التي كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الأرض التي كانت تسكنها، وقلة عدد المتدينين الذين كانوا يتدينون بهذه الديانات.

ثم إن من ادّعى النبوة لم يحقق من النجاح، ولم يكتسب من الأتباع ما كان يخشى من جهالة المسلمين، ودهاء المتنبئين، وما وردت به الأخبار الصحيحة عن عدد المتنبئين «الذي لا يتجاوز سبعين إلى أن تقوم القيامة» والذي سجله التاريخ من أسمائهم وأخبارهم قليل؛ نظراً إلى اتساع الأمة الإسلامية، وامتداد نفوذ الإسلام، واضطراب العقائد، وتشتت الأغراض والمذاهب، وتلك نتيجة رسوخ عقيدة ختم النبوة في أذهان المسلمين وتغلغلها في أحشائهم، ولوضوح الآيات، ولصراحة الأحاديث التي وردت في هذا المعنى وشهرتها واستفاضتها.

* * *

= عالم من علماء المسلمين الذين عليهم الاعتماد، إما مفترى عليه، وإما مدسوس في الكتاب، وإما قُطعت عبارته عن سياقها وحُرّفت عن موضعها، وإما أُسيء فهم مراده عن قصد أو عن غير قصد.

(١) لقد خلد التاريخ أسماء من ادَّعوا النبوة، ولقبهم المسلمون بالمتنبئين، وبقي هذا العار واللقب الشنيع لاصقاً بهم، ولم يسامح التاريخ في ذلك أشهر شاعر من شعراء العربية، وقد انتهت إليه رئاسة الشعر، وعقد له اللواء، وهو أبو الطيب أحمد ابن الحسين الكندي (م٣٥٤هـ) وقد غلب عليه لقب (المتنبي) فغطى اسمه.

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثامنة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخِرُ الرُّسُل وخاتمُ النَّبيّين

(٢)

انقطاع النبوة تكريم للإنسانية ورأفة بها:

أشارت الحكمة الإلـٰهية بختم النبوة إلى أن الإنسانية قد بلغت سن الرشد، ومرحلة النضج والاستواء، فقد خرجت من إطارها الضيق الذي عاشت فيه قروناً طويلة؛ لأسباب تاريخية طبيعية يطول شرحها، واستعدت لأن تدخل في مرحلة جديدة من العلم والمدنية، والتعارف والوحدة، وتسخير الكون وطاقاته، والتغلب على العوائق الطبيعية، والتقسيمات الجغرافية، والفوارق السياسية، وخرجت من مفهوم الأُسر والقبائل، والشعوب والأقاليم إلى مفهوم العالم الفسيح، والإنسانية الواسعة، والهداية العامة، والعلم المشاع.

وكانت كل الشـواهد والتجارب تدل على أن سـعادتها في الاعتماد على ما نزل من وحي، وصح من عقيدة وتشريع، وتعيَّن من حدود وغايات، وأصول وكليات، عن طريق النبوءة التي كانت خاتمة للنبوءات، وعن طريق الكتاب الذي كان مهيمناً للكتب، والسير في ضوئه على هدى وبيّنة، وشق طريق الحياة إلى الأمام، والاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبيعية، ووسائل العلم، والعقل المؤمن، والقلب السليم، والسعي الهادف.

وكان شقاؤها في الزمن الماضي بالتباس الأمور، واختلاط الحق بالباطل، وكثرة الدعوات المدَّعية للاتصال الخاص بالسَّماء، وتلقي التعاليم من فوق كذباً وزوراً، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان هلاك أمم كثيرة بالكفر بالأنبياء الذين كانوا يُبعثون فيها، والذين كان يأتي بعضهم على إثر بعض، فإن النبوة ليست زعامة سياسية، أو رئاسة دنيوية يهون إنكارها ومحاربتها، والثورة عليها، إنما هي فرقان بين الحق والباطل، وبها تتم حجة الله على هذه الأمة التي يبعث فيها النبي، ويعرف المتتبع للقرآن أن سبب هلاك الأمم السابقة لم يكن بالكفر المطلق، وبمجرد فساد العقائد والأعمال والأخلاق، إنما كان لتكذيبها بالنبي المبعوث فيها، واستهزائها به، وإهانتها له، وقد قص القرآن قصة هذه الأمم في بسط وتكرار، واجترائها على نبيها المرسل، وما لقيه منها من أذى وسخرية وإهانة أحياناً أخرى، والآيات في هذا المعنى كثيرة يصعب استقصاؤها، ونقتصر هنا على بعضها:

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤١].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [سورة صٓ: ١٤].

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وفي انقطاع النبوة توفير للجهود البشرية والطاقات الإنسانية عن أن تمتحن وتستنفد بعد كل فترة زمنية، أو على مسافة مكانية، في التصديق والتكذيب،

www.abulhasanalinadwi.org

والإيمان والكفر، وذلك شيء طبيعي إذا استمرت سلسلة النبوة، واتصال الأرض بالسماء لتلقي الوحي الجديد، والتعليم المفيد، والشرع المزيد، ونهض بعد حقبة من الزمان ـ قد تطول وقد تقتصر، وعلى مسافة من المكان قد تبعد وقد تقرب ـ من يدّعي النبوة، ويدّعي أن الله يخاطبه ويوحي إليه، وأنه كُلِّف تبليغ الرسالة، ويحكم الكفر من يكفر به وينكر نبوءته، ويحاربه حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا رفق، ولا استثناء فيها ولا فرق، وينحت من الأمة الواسعة، التي ملأت الآفاق، أمة صغيرة، قد يبلغ عددها إلى مئات من النفوس، أو إلى آلاف، أو مئات آلاف، وهكذا يتشاغل الناس ـ بعد كل فترة من الزمان ـ وفي أمكنة متعددة في هذا العالم الفسيح في وقت واحد، بالحكم على هذا المدّعي أو المدّعين، منهم المغبون في عقله، ومنهم المحترف بدينه، ومنهم من هو صنيعة لغيره، أو الملبوس عليه في عبادته لقلة علمه، وكثرة مجاهدته، قد اتخذه الشيطان مطية ولعبة، أو الحكومات أو أصحاب الأغراض السياسية وسيلة وذريعة، إلى غير ذلك من الإمكانات التي لا ينكرها العقل، ولا تنفيها التجربة، ولا يكذبها الواقع، فكل ذلك وُجد في الديانات السابقة، وظهر في الأمة الإسلامية في بعض الفترات التاريخية.

مشكلة كثرة المتنبئين في الديانات السابقة وخطرها على سلامة العقيدة ووحدة الديانة:

وتدل مطالعة صحف (العهد القديم) دلالة واضحة على أن عدداً كبيراً من أصحاب الطموح، وعشاق الجاه والزعامة الدينية، تزعَّموا النبوة والكهانة، والاتصال بعالم الغيب اتصالاً مباشراً معتمدين في ذلك على رؤى وأحلام كانوا يرونها، أو يزعمون أنهم يرونهم، وقد أحدث ذلك فتنة عظيمة في المجتمع اليهودي، حتى لزم أن يُنبَّه عليها عن طريق الصحف التي نزلت على أنبياء بني إسرائيل، وهنا نقتصر على بضع شهادات ملتقطة من (العهد القديم).

«هانذا على الذين يتنبؤون بأحلام كاذبة، يقول الرب: الذين يقصُّونها ويُضِلُّون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم، وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم، فلم يفيدوا

www.abulhasanalinadwi.org

هذا الشعب فائدة يقول الرب»[1].

«فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم، الذين يكلمونكم قائلين: لا تخدموا ملك بابل؛ لأنهم إنما يتنبؤون لكم بالكذب؛ لكي يبعدوكم من أرضكم ولأطردكم فتهلكوا»[2].

«فتحققت وهو ذا لم يرسله الله؛ لأنه تكلم بالنبوة علي، وطوبيا وسنبلط قد استأجراه؛ لأجل هذا قد استؤجر لكي أخاف وأفعل هكذا وأخطئ، فيكون لهما خبر رديء يعيراني»[3].

«وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبأ على أنبياء إسرائيل الذين يتنبؤون، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم: اسمعوا كلمة الرب، هكذا قال السيد الرب، ويل للأنبياء الحمقى، الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئاً»[4].

«صار في الأرض دهش وقشعريرة، الأنبياء يتنبؤون بالكذب، والكهنة تحكم على أيديهم، وشعبي هكذا أحب!! وماذا تعملون في آخرتها»[5].

«لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل، لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم، وعرّافوكم، ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها؛ لأنهم إنما يتنبؤون لكم باسمي بالكذب، أنا لم أرسلهم يقول الرب»[6].

ويبدو من الوثائق التاريخية اليهودية، أن سلسلة هؤلاء المتنبئين استمرت إلى بعد عهد تدوين صحف (العهد القديم)، وقد تكاثر هؤلاء (المتنبئون) اليهود في البيئات التي كان اليهود فيها هدف الاضطهاد والقسوة والإهانة، واستشرف المجتمع اليهودي من ينقذه من هذه الحالة المزرية، وينتصف من عدوه، ويرد

---

(١) ارميا ٢٣: ٣٢.
(٢) ارميا ٢٧: ٩ـ١٠.
(٣) نحميا ٦: ١٢ـ١٣.
(٤) حزقيال ١٣: ٢ـ٣.
(٥) ارميا ٥: ٣٠ـ٣١.
(٦) ارميا ٢٩: ٨ـ٩.

www.abulhasanalinadwi.org

إليه الاعتبار والكرامة، واستغل هذه النفسية المكلومة الموتورة بعض الأذكياء الذين لا يخافون الله، ولا يرجون حساباً ولا كتاباً، فاعتبروا ذلك فرصة سانحة لتحقيق مآربهم الشخصية، أو أغراضهم السياسية، ففاجؤوا أبناء ملتهم بمبشرات وتكهنات، ووعود خلابة، وأسسوا عليها نبوتهم الجديدة، وكان لها سحر عجيب في النفوس البائسة، التي ضاقت ذرعاً بالظروف القاتمة التي طال أمدها، فأقبل عليهم عدد كبير من المصدقين والمصفقين، واضطربت العقائد، وشاعت البدع، ونشأت طوائف مُحدَثة هالت الغيارَى على التعليمات اليهودية الأصيلة وأفزعتهم، يقول (ألبرت إيم تائمسن) (Albert M.Tyamson) عضو المجمع التاريخي اليهودي الأمريكي البريطاني في دائرة معارف الأديان والأخلاق:

«يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كل واحد منهم يدعي أنه (المسيح الموعود) وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية، ودامت إلى عدة أجيال، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر، والغد الباسم لا يزالون يَبعثون في اليهود ـ في أحلك عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزمن الماضي، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض في أمكنة وأزمنة يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي، وكانت هذه الحركات غالباً تتسم بالسمة السياسية، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الديني تجرداً كاملاً، ولكنها كانت في غالب الأحيان تُشجِّع على البدع، وتوسِّع بذلك نفوذها، وتقوّي سلطانها؛ لذلك كانت جنايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصلية، وتنجم فرق متطرفة تنضم أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام[1].

وقد استمر التنبؤ والتزعم للنبوة بدوافع شخصية وطائفية واقتصادية وسياسية إلى ما بعد المسيح، وهنا شهادات من (العهد الجديد) تدل على كثرة المتنبئين وخطرهم:

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encyclopaedia of Relegion and ethics) : ٨/ ٥٨٨.

www.abulhasanalinadwi.org

«وفي تلك الأيام انحدر من أورشليم إلى أنطاكية وقام واحد منهم اسمه (أغابوس)، وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة، الذي صار أيضاً في أيام كلوويس قيصر»[1].

«وبينما نحن مقيمون أياماً كثيرة انحدر من اليهودية نبي اسمه أغابوس فجاء إلينا، وأخذ منطقة بولس، وربط يدي نفسه ورجليه، وقال: هذا يقوله الروح القدس، الرجل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم، ويسلمونه إلى أيدي الأمم»[2].

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة»[3].

«ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به؛ لأن مثل هؤلاء هم رسل كَذَبة، فعلة، ماكرون، مغيِّرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح»[4].

«أيها الأحبار لا تصدِّقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح، هل هي من الله؛ لأن أنبياء كذبة كثيرين خرجوا إلى العالم»[5].

«وكان قبلاً في المدينة رجل اسمه (سيمول)، يستعمل السحر، ويدهش شعب السامرة قائلاً: إنه شيء عظيم، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين: هذا هو قوة الله العظيمة»[6].

«ولما اجتازا الجزيرة إلى بافوس، وجدا رجلاً ساحراً، نبياً كذّاباً يهودياً،

---

(١) أعمال الرسل ١١: ٢٧ـ٢٨.
(٢) أعمال الرسل ٢١: ١٠ـ١١.
(٣) إنجيل متى ٧: ١٥.
(٤) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ١١: ١٢ـ١٣.
(٥) رسالة يوحنا الأولى ٤: ١.
(٦) أعمال الرسل ٨: ١٠.

www.abulhasanalinadwi.org

اسمه باريشوع»[1].

«فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يضلُّكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح، ويضلون كثيرين»[2].

«هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً»[3].

أما ما يتصل بالعهد المسيحي والحديث عن مشكلة ظهور المتنبئين والكهَّان، والمتزعمين للهداية الربانية المباشرة، فنقتصر هنا على شهادة واحدة لكاتب مسيحي صاحب اختصاص في الموضوع، يبدو للمتأمل فيها تذمر العلماء المسحيين من هؤلاء المتنبئين الذين تكاثر عددهم في العهد الأخير، وإشفاقهم البليغ على سلامة العقيدة ووحدة الديانة، وهدوء الحياة، يقول (إيدون ناكس متكل) (edwin knox Mitchll) أستاذ تاريخ الكنيسة اليونانية الرومية، والكنيسة الشرقية في معهد الديانات بـ(هارت فورد) (hart ford) في مقال كتبه لدائرة معارف الديانات والأخلاق، يقول هذا الكاتب:

«إن ظهور المتنبئين الأدعياء الذين كانوا يدّعون الحكمة ـ التي مصدرها الغيب وما وراء العقل ـ أحدث اضطراباً وعدم ثقة، وجعل قادة الكنائس وأساقفتها يشعرون بالخطر الذي كان يتهدد مستقبلها، ويحلّق على رؤوسهم، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى طرق تأديبية ملائمة وافية بالمراد؛ لزجر هؤلاء الأدعياء والدعاة، الذين كانوا يزعمون أن الله يكلمهم ويبوح لهم بأسراره المكتومة، ولم يكشفوا بعد ميزاناً يمتحن به مدى روحانية هؤلاء المتزعمين، ومبلغها من الصدق، وكان العثور على هذا المعيار والمحك قد أصبح لازماً لمصالح الكنيسة، وكانت الكنيسة مهتدية إليه لا محالة؛ لتصون الدين ـ عن طريق هذا المحك ـ عن الفوضى في المبادئ الأساسية، والحياة عن الاتجاه إلى الإلحاد، وهكذا تستطيع أن تنشئ سياجاً حول كيانها تعيش فيه بهدوء وسلام».

---

(١) أعمال الرسل ١٣: ٦.

(٢) إنجيل متّى ٢٤: ٤ ـ ٥.

(٣) إنجيل متّى ٧: ٦.

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول وهو يتحدث عن كثرة الأدعياء والمتنبئين في العالم المسيحي:

«إن تأليف (هيرمو باستر) (Hirmo paster) الذي سمَّاه (Mand) ومؤلفات (إجناتيس) (Ignatius) مملوءة بتنبيهات وتعليمات ضد الدجالين من المتنبئين والمعلمين».

وتدل مطالعة كتاب (Thi didache) على أن الكهانة كانت لا تزال تتمتع بحرية زائدة، بل كانت لها مكانة مرموقة في سورية (أو مصر) مع أنها كانت في غالب الأحيان مصطنعة مزورة، وكانت الكنيسة ترفضها رفضاً باتاً، ولكنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت لتفقد اعتبارها في المستقبل القريب، وتواجه معارضة واجهها جميع الأشخاص الذين غلَوا في ادِّعاء الحكمة الغيبية، إن العارفين الروحانيين (غنوسطين) (Gnostics) و(المارسيين) (Marcion) كان لهم أنبياء يختصون بهم، وكنائس تتصل بهم، وكان من الصعب في بعض الأحيان التمييز بينهم، وكأن حركة (مونتانزم) (Montanism) مشجعة لدعوة النبوة، وكانت في الحقيقة سعياً وراء إحياء الأحوال البدائية التي مرت بها المسيحية، حين كان كل مؤمن بهذه الديانة حراً في استخدام المواهب التي أكرمه الله بها.

واتخذت الكنيسة موقف الدفاع (ضد هذا السيل الجارف من النبوءات والكهانات، والمزاعم والادّعاءات)، وهكذا فرضت رقابة وحَجْراً عن طريق الوثائق المكتوبة على الكهانة والنبوءات، وهكذا فقدت الدعاوَى الطويلة العريضة، و(المعجزات) وشفاء الأمراض قوتها ونشاطها، ولم ينته القرن الثاني المسيحي، حتى أصبح رؤساء الكنيسة والمسؤولون عنها مسيطرين على أصحاب الكهانات والنبوءات، مالكين لزمامهم»[1].

ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل:

ثم قد اقتضى ذلك ـ ختم النبوة ـ طبيعة هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ،

---

(١) راجع مقال «النبوة والتنبؤ (في الدور المسيحي)» دائرة المعارف للديانات والأخلاق.
(Encyclopaedia of Religion and eathics 1939 p. p.383/84).

www.abulhasanalinadwi.org

تـاماً كاملاً، في العقائد والشـرائع، والتعاليم الخُلُقيـة والاجتماعية والمدنية، حاوياً للأسس السليمة الصالحة التي يقوم عليها المجتمع الصالح والمدنية الرشيدة في كل زمان ومكان، ويبلغ بها الفرد البشري ذروته في التقدم والاكتمال، ويحقق به أهدافه الصالحة من غير أن يشعر بعرقلة في هذا السير الطبيعي، والبلـوغ إلى قمة الحُسن والإحسان، والجمع بين حسني الدنيا والآخرة، ومن غير أن يشعر بنقص في مجال التشريع، وعجز عن مسايرة الحياة، وتحقيق مطالبها الفطرية، بل يجد هذا التشريع سابقاً للزمن، باهراً للعقل البشري.

وقد دلت دراسة الكون، وتتبُّع سنن الله في هذا العالم الفسيح، وفي ماضي الأمم وحاضرها، أنه لا فضول عنده ولا تقصير، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأنه ينزِّل الأشياء كلها بقدر، وأن كل مانراه مما يبدو زائداً أو قليلاً، أو متجاوزاً أو متخلفاً، إنما هو من قصور نظرنا وقلة علمنا، والتكليف والتشريع أحق من التكوين والعالم الطبيعي بالدقة والإتقان والتناسب؛ لأنه غاية والكون وسيلة، فلو لم يقم دليل نقلي على اختتام النبوة على محمد ﷺ لعرفنا بحكم العقل أن النبوة الجديدة التي يُمتحن بها البشر بعد النبوة المحمدية إرهاق للبشرية فيما لا لزوم له، وجهاد في غير جهاد، ومخالف لما عرفناه من سنن الله في خلقه وفي هذا العالم.

حيويـة هذا الدين، وقـوة توليده، وإنتـاجه للعارفين وأصحـاب اليقين والمصلحين والمجددين:

وليس لأحد من أفراد الأمة بل من أفراد البشر ـ في أي عصر من العصور ـ عذر في عدم الوصـول إلى مراتب اليقين، وأعلى درجـات القرب والوصـول، وغايـة الرضا والقبول، والإخبات والإنـابة، وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، إلا ضعف إرادتـه وفتور همّتـه، وإخلاده إلى الأرض واتّبـاع الهوى، أو جهلـه للقرآن والحديث، وإلا فهذا الدين زاخر بالحياة والقوة والجِدّة، متكفل بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، يبلغ الإنسان بالعمل به ـ في جد وعزم وإخلاص ـ إلى درجة من درجات القرب والسمو والكمال، ليست فوقها إلا النبوة.

«وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذي يتدفق بالحياة والقوة، والذي لا تَبْلى

www.abulhasanalinadwi.org

جِدّتُه، ولا تنقضي عجائبه، و(الصلاة) التي تزخر بالقوة والحيوية كذلك، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيء آخر في الدين، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل، إلى مكانة في الإيمان واليقين والعلم والمعرفة، والربانية والروحانية، والقرب والولاية، لا يصل إليها ذكاء الأذكياء، وقياس العقلاء والحكماء، وما زالوا في عدد يفوق العَدَّ والإحصاء، ولا يزالان يفيضان النمو والحياة، والجدة والنشاط، والروحانية الصافية الدفاقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها، تستغني بهما هذه الأمة عن نبوة جديدة، وبعثة جديدة، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به في كل دَوْر من أدوار حياتها، وفي كل عهد من عهود التاريخ، تستمد لنفسها من القرآن والصلاة رابطة قلبية وقوة روحية، وتمدُّ إلى العالم المعاصر يد الدلالة والهداية؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]»[1].

ثم إن هذا الدين تكمن فيه قوة حافزة عجيبة، على الثورة على كل ما يخالف هذا الدين وينحرف عن الجادة، ويُعرِّض الإنسانية وبقايا الخير للهلاك والتلف، باعثة على التحدي للباطل، ومحاربة قوى الشر والرذيلة، والدعاة إلى الإفساد والإلحاد، وردِّ الأمر إلى نصابه، وعلى الحِسبة على الأخلاق، وكلمة حق عند سلطان جائر، والمجازفة بالحياة، والتخلي عن المنافع والملذات، والإنكار على البدع والخرافات، والفتن والضلالات، مهما كلف ذلك من خسارة في الأموال والأرواح، وعذاب للأبدان والأجسام، فلم يزل هذا الكتاب الذي يفرض على المسلمين أن يكونوا قوّامين بالقسط، شهداء لله، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، غير متعاونين على الإثم والعدوان، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، أولياء لله ولأتباعه، محاربين

---

(١) ما بين الهلالين مقتبس من كتاب المؤلف (الأركان الأربعة).

www.abulhasanalinadwi.org

للشيطان ولأوليائه، لا يبيعون دينهم بدنياهم، ولا يُؤثِرون العاجلة على الآجلة، وترد الأخبار الصحيحة الصريحة الحاسمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بما استطاعه الإنسان من يد ومن لسان وقلب، والوعيد الشديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومالأ أعداء الله والمحرِّفين والمبتدعين، وتواتر ذلك واستفاض، فظل هذا الكتاب يُنشئ في كل ناحية من نواحي العالم، وفي كل فترة من فترات التاريخ الإسلامي، مَن يحمل راية الجهاد والتجديد، ويقود حركة الإصلاح والدعوة، ويخوض المعركة غير مكترث بالعواقب ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد بشر لسان النبوة بأن الله يقيِّض لهذه الأمة في كل قرن ـ وهو فترة زمنية ذات اعتبار في حياة الأمم ـ من يقوي صلتها بهذا الدين وينفخ فيها روحاً جديدة فقال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدّد لها دينها»[1].

وهو الكتاب الذي منع من الانحراف مع تيار الفساد والضلالة، والترف والجاهلية، ونفخ روحاً جديدة في أجساد ضعيفة، وأشعل شعلة الإيمان والحماس في هِمم هامدة، وقلوب خامدة.

اتِّصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام، وسره:

«إن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام، والمتقصّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدى القوى الظالمة، أو عناصر الفساد.

ويفتح نوافذ جديدة للتفكير، والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبَت مصابيح الإصلاح، وخفتت أصوات الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلَّد

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولعلماء الإسلام بحوث ورسائل في شرح هذا الحديث وذكر من كان مصداقه في تاريخ الإسلام، تجلت فيها أذواقهم واتجاهاتهم.

www.abulhasanalinadwi.org

الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل. إن هذه الثغرات ـ التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي، وفي نظرتنا العجلى في كتبه ـ مردُّها إلى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً، ودرجت عليه الأجيال؛ إن النقص في التأليف وليس في التاريخ، أو بكلمة أخرى: إن المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين، لا على المجددين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين، وحفظوا على الإسلام جِدَّته وشبابه، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات حتى أصبحت مطمورة في ركام الماضي، لا يهتدي إليها أحد في هذا العصر إلا بعد بحث وعناء، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس وإجهاد العقل والعين، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط، وتستند إلى الملك والسلطان والمال والجاه، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْل وطَوْل، ولكنها طويت ـ بفضل جهود هؤلاء المسلمين المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي، وأصبحت موضوع علماء الآثار، لا محلَّ لها إلا في المتاحف والصحائف»[1].

جناية عقيدة استمرار النبوة أو (الإمام المنتظر) على الشعور بالمسؤولية، وقوة مقاومة الفساد:

ولا شك أن الفضل في اتصال تاريخ الجهاد والتجديد، والبطولات والمغامرات في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، والمياه إلى مجاريها الطبيعية، والأخذ على يد الظالم، والانتصار للمظلومين في تاريخ الإسلام، يرجع إلى اعتبار الأمة ـ خاصة العلماء منها ـ نفسها مسؤولة عن إقامة الحق والعدل، والموازين القسط، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الدين الخالص، لا تنتظر لذلك نبياً جديداً يبعث، وقوة غيبية تتصل بالسماء اتصالاً مباشراً، ولا تعتمد في ذلك على شيء غامض يجلّ عن العقول والظواهر ويدق فهمه، فيقوم على مجرد التقليد والتقديس.

والأمم والطوائف ـ الإسلامية وغير الإسلامية ـ التي تمسكت بمثل هذه

---

(١) مقتبس من (رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام)، ص٢٧.

www.abulhasanalinadwi.org

العقائد، لم تعتبر نفسها مسؤولة ولامكلفة لمحاربة الباطل وقوى الشر، وإقامة الحق والعدل، وعاشت في عالم الخيال والأماني والأحلام قروناً طويلة، واستسلمت للأوضاع الفاسدة، وأخلدت إلى الدَّعَة والراحة والتواكل، وضعفت في تاريخها حركة الإصلاح والتجديد، وخفتت أصوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحار المتتبع لتاريخها في فهم السر في هذا الفراغ الذي لا يحمل على مجرد مصادفة، ويعجز عن تعليله، وما ذلك إلا لاعتماد هذه الطائفة الاعتماد الزائد على شخصية غامضة مقدسة، تحمل من علوم الأسرار والأمانة الباطنة، والصلة السرية بينه وبين فاطر الكون وصاحب الرسالة ما لا يحمله غيرها، وستفاجئ العالم بظهورها في وقت مناسب، وتقلب الأوضاع[1].

ولا شك أن قضية نبي جديد، وأنبياء جدد، وعقيدة استمرار النبوة ونزول الوحي والمكالمات والمخاطبات الإلهية ـ التي أَسَّس عليها بعض المدّعين نبوتهم، واستدلوا بها في صدق دعواهم ـ أدق وأخطر، وأعمق تأثيراً في العقول والنفوس، فإنها تُضعف ثقة هذه الأمة بصلاحية دينها وشريعتها، وخلود رسالتها، واستغنائها عن نبوة جديدة، وعن تعليمات جديدة من السماء، وتحول بينها وبين اعتمادها على طاقاتها وصلاحيتها وكفاحها، من حيث تشعر ومن حيث لاتشعر، هذا عدا أن إمكان ذلك يجعلها فريسة للأدعياء والدجَّالين، والمحترفين المشعوِذين، ولعبة لدهائهم وذكائهم.

رحمة بالأمة الإسلامية ومنّة عليها:

فكان من أكبر نِعَم الله تعالى على هذه الأمة ومن خصائصها سد هذا الباب إلى الأبد، والإعلان السافر الصريح الواضح البيِّن بأن النبوة قد خُتمت بمحمد ﷺ،

---

(١) وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد، ما يعتقده الشيعة الإمامية في الإمام الغائب، وهو الإمام الثاني عشر في اعتقادهم، فيعتقدون أنه برجوعه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وهو محمد المهدي ابن الحسن العسكري، ولد ببغداد سنة ٢٥٥هـ، ويعتقدون أنه دخل مع أمه سرداباً في (سامراء) ولم يعد إلى الآن وهو حي لم يمت؛ اقرأ (أصل الشيعة وأصولها) للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ص٢ـ١٠٩.

www.abulhasanalinadwi.org

وأن الدين قد أُكمل للمسلمين قبل أن يفارق الرسول ﷺ هذا العالم، ويلحق بالرفيق الأعلى، وأن الله قد أتم نعمته على هذه الأمة، فلا نبي بعد محمد ﷺ، ولا أمة بعد الأمة الإسلامية، وتلك نعمة حَسَدَ المسلمين عليها حكماءُ اليهود وفقهاؤهم، الذين عرفوا بلاء اليهود من كثرة أدعياء النبوة ومتزعميها في العالم اليهودي، وما جرَّ ذلك من بلبلة فكرية وإضراب عقائدي، وصراع مذهبي، وتمزق اجتماعي، فقد جاء في الحديث الصحيح: (جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فقال عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة»[1]، وهذا يدل على عِظم هذه النعمة وجلالتها، حتى يتحسر علماء اليهود، ويحسدوا المسلمين عليها، كما أنه يدل على أن الأديان السابقة لم يكن لها حظ من هذا الإعلان والضمان، والكرامة والكفالة، وكان ذلك بطبيعة الحال، فإنها كانت في دور النشوء والارتقاء، وكانت السلالة البشرية في دور التطور والانتقال، وكانت الرسالة الأخيرة الخاتمة التي فُصِّلت على أكبر قامة وأدق مقياس لم تنزل بعد، وتلك مزية خصَّ الله بها محمداً ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين، وأكرم الله بها هذه الأمة، آخر الأمم وأوسطها.

الحارس من الفوضى الفكرية:

لقد بقيت عقيدة ختم النبوة تحرس هذا الدين من غائلة المبتدعين، وفتنة المتنبئين والمتزعمين، وتحرس هذه الأمة من الفوضى الفكرية والدينية، التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها، واستطاع هذا الدين واستطاعت هذه الأمة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة، وتحتمل الصدمات العنيفة، وبقيت وحدة في الدين والعقيدة، لم تواجه ثورة داخلية او اضطراباً فكرياً

---

(١) رواه البخاري، وأصحاب الصحاح والسنن، والإمام أحمد، واللفظ لأحمد.

www.abulhasanalinadwi.org

ـ إلا ما كان من الباطنية في العهد القديم ـ ولا تنقسم هذه الأمة في الأمم، لكلٌّ وجهتها، ولكلٌّ مركزها الروحي ومصدرها العلمي والثقافي، ولكلٌّ تاريخ منفرد وماض مختلف.

فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية:

وقد بعثتْ هذه العقيدة في الإنسان الثقة ببلوغه سن الرشد، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدم في مضمار المدنية، والاعتماد على العلم والتجربة في الحياة اليومية، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحياً جديداً من السماء فيرفع بصره إليها، وإنما حاجته اليوم أن يفكر في مواهب هذا الكون وطاقاته التي خلقها الله تعالى؛ ليشغلها الإنسان في صالحه، ويستخدمها لحوائجه، كما أن حاجته اليوم أن يفكر في نفسه، وينظر إلى الأرض لبناء حياة أفضل، تقوم على أساس من الدين والأخلاق.

إن الاعتقاد بانتهاء النبوة يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدم، ويحثه على بذل مواهبه، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده.

لولا عقيدة ختم النبوة لفقد الإنسان ثقته بنفسه، وبقي في ريب دائم، وظل شاخصاً ببصره إلى السماء، بدلاً من أن ينظر إلى الأرض، وفقد ثقته بمستقبله، وثارت شبهات وشكوك حوله، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام، ولا يظهر متنبئ يؤكد له «أن الروضة الإنسانية كانت ناقصة، فجاءت وبلغت إلى كمالها»[1] إلا أنه يضطر إلى اعتقاد أن هذه الروضة إذا كانت ناقصة إلى الآن، فأي ضمان لكمالها في مستقبل الحياة الإنسانية.

وهكذا يستمر انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة إلى حد الكمال، دون أن يتمتع بأزهارها وأثمارها، ودون أن يهمه سقيها وريُّها.

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام):

---

(١) من كلام متنبئ الهند المرزا غلام أحمد القادياني في شعر له.

www.abulhasanalinadwi.org

«إن النبوة في الإسلام لَتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق ؛ لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يُقاد منه، وإن الإنسان لكي يُحصِّل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يُترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو».

إن إبطال الإسلام للرهبنة، ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صُورٌ مختلفة لفكرة انتهاء النبوة[1].

فتنة المتنبئين الكبرى:

لم يمتحن الإسلام والمسلمون في تاريخ الإسلام الطويل بفتنة أعظم وأدق من فتنة المتنبئين، إلا أن دعوة أكثرهم لم تلقَ نجاحاً يذكر، وقد ماتت في مهدها، ولم يبق لها عين ولا أثر، ولكن الشأن يختلف فيما يختص بمتنبئ شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر والعشرين: المرزا غلام أحمد القادياني (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨م) لأسباب سياسية اقتضت ذلك[2].

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه، وقال: «إن اتباع النبي ﷺ يمنح كمالات النبوة، وإن العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم»[3]، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود: «لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفدت، ما قدروا الله حق قدره، إنكم تتنازعون في نبي واحد، وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبي بعد محمد ﷺ»[4].

وقد أحدث ذلك فوضى في النبوة، وفقدت كلمة (النبوة) جلالتها وحرمتها وقداستها، وأصبحت ألعوبة وعبثا، وهان على الناس بصفة عامة بعد المرزا أن يتنبؤوا، وما عرفنا في التاريخ الهندي ـ الذي لا يزال محفوظاً إلى حد كبير ـ

---

(١) (تجديد الفكر الديني في الإسلام) ترجمة عباس محمود، ص١٤٤.

(٢) راجع كتاب المؤلف (القادياني والقاديانية).

(٣) (حقيقة الوحي) للمرزا غلام أحمد، ص٩٦.

(٤) (أنوار خلافت)، ص٦٢.

www.abulhasanalinadwi.org

شخصية أنكرت ختم النبوة، وتجرأت على تأسيس دين جديد، سوى الإمبراطور (أكبر) غير أنه لم يدّع النبوة كما ادعاها المرزا بصراحة وتنظيم، ولكن المرزا هو أول من فتح الباب بوجه عام، ونهض عدد من المتنبئين، وقد عد منهم الأستاذ محمد إلياس البرني إلى عام (١٩٣٦م ـ ١٣٥٥هـ) سبعة، ولا شك أنه لم يكن إحصاءً دقيقاً، وإلا فإن قام أحد بإحصائهم بشيء من الاهتمام والدقة، لوجد في نفس مقاطعة (بنجاب) أكثر من هذا العدد بكثير.

وقد احتج على كثرتهم وضعف آرائهم، وسفاهة أحلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه في إحدى محاضراته، يقول:

«لقد نشأ في جماعتنا كثير ادَّعوا النبوة، وأعتقد أنهم ليسوا في الدعوى كاذبين غير واحد منهم، وفي الحقيقة أنهم ألهموا في أول الأمر، ولا عجب إذا كان هذا الإلهام باقياً إلى الآن، ولكن الخطأ الذي وقعوا فيه هو أنهم أخطؤوا في فهم تلك الإلهامات، وأنا شخصياً أعرف بعض هؤلاء، حتى أستطيع الإقرار بإخلاصهم وخشيتهم لله، ولا يدري ما في قلوبهم إلا الله، سوى أنهم كانوا في بادئ الأمر مخلصين، وكانت بعض إلهاماتهم من الله، ولكن الذي سبب خسارتهم هو أن حكمتها خفيت عليهم فعثروا»[1].

فتنة (المكالمات والخطابات الإلـٰهية)، ورؤية الباري تعالى في الدنيا:

ويعرف المطلع على التاريخ الفكري وتاريخ التصوف ـ الإسلامي وغير الإسلامي ـ أن الاتصالات بعالم الغيب عن طريق الرياضات والمجاهدات، وتلقي الإلهام والكلام، والهتافات والأصوات من هذا العالم، كان مدخلاً واسعاً للأوهام والمغالطات والتناقضات، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل والأباطيل عن قصد وعن غير قصد، كان من الصعب دائماً التمييز بين مصادرها ودرجاتها، وما هو من الله، وما هو من الشيطان[2]، وما هو نابع عن العادات

---

(١) (الفضل) أول يناير ١٩٣٥م.

(٢) وقد أشار إلى هذا الإمكان الدكتور محمد إقبال الذي كان من كبار علماء الفلسفة في العصر=

www.abulhasanalinadwi.org

والمألوفات، والعلم السائد والثقافة المنتشرة، والعقائد التي نشأ عليها هذا (الملهم) أو (المُحدَّث) أو (المكشوف له)، وقد بيَّن علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق أن التجرد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة في تلقي هذه (المغيبات) وفهمها يكاد يكون مستحيلاً[1].

وكل من جعل هذه (المكالمات والمخاطبات الإلٰهية) أو رؤية الباري تعالى شرطاً للهداية أو للنجاة، أو لكمال الإيمان[2] وأسَّس على ذلك نبوة جديدة

= الحديث، فقال: «إني أعترف بأن مؤسس الجماعة الأحمدية (القاديانية) سمع صوتاً، ولكن الحكم بأن هذا الصوت كان من عند الله الذي بيده الحياة والقوة، أم كان مصدره الإفلاس الروحي الذي كان سائداً في الناس؛ يتوقف على هذه الحركة التي خلقها هذا الصوت» إلى أن قال: «إذاً أعتقد أن هؤلاء الأبطال الذين أسهموا في تمثيلية (الحركة الأحمدية) كانوا ألعوبة في يد الانحطاط والزوال» (حرف إقبال، ص١٥٧ـ١٥٨). وأبلغ من ذلك ما قاله في البيت: «أعاذ الله من إلهام ملهم نشأ وعاش في حكم أجنبي، فإنه أضر بالأمم، وأشد فتكاً بها من الفاتحين الوحوش أمثال (جنكيز) و(هولاكو)».

(١) لقد شرح الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي (م١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤م) هذه النقطة شرحاً وافياً في بعض رسائله، وجاء بإشارات بليغة في هذا الموضوع تقوم على التجربة الشخصية والعلم العميق والاطلاع الواسع؛ إنه يرى أن العقل المجرد والكشف المجرد شيئان يندر وجودهما ووقوعهما، ومن المصادفة العجيبة والتوارد الغريب أن الفيلسوف الألماني الشهير (كانت) (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م)(Emmanual Kant) الذي ظهر بعده بمئة وثمانين سنة، أبدى عدم ثقته بالعقل المجرد، وقدرته على التعبير والحكم متحرراً عن البيئة والمجتمع، والتراث، والعادات والمعتقدات ـ انظر كتاب نقد العقل المجرد (Critic of pure Reason) ـ وقد تقدم الإمام الرباني خطوة وبحث في قضية الكشف المجرد والإلهام المجرد؛ لأنه سار على هذا الدرب، وجرب هذه الأمور بنفسه، وأهل مكة أدرى بشعابها (اقرأ رسالته إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله من أبناء الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي الدهلوي رقم ٢٦٦ ـ المجلد الأول).

(٢) كما فعل ذلك السيد محمد يوسف الحسيني الجونفوري (٨٤٧ ـ ٩١٠هـ) فادّعى أن الإنسان إذا لم يسعد بالمشاهدة الإلٰهية ولم ير الباري تعالى بالعين أو بالقلب في اليقظة أو في المنام فليس بمؤمن، وقد أحدث ذلك اضطراباً عظيماً في المجتمع الإسلامي الممتد من شرق الهند إلى غرب أفغانستان في القرن العاشر الهجري، وأصبح الشغل الشاغل للمسلمين، العلماء منهم والسلاطين، وكان السيد المشار إليه صاحب صدق=

www.abulhasanalinadwi.org

أو دعوة جديدة، وألزم ما لم يلزم، وجنى على هذا الدين الذي هو عام للبشر جناية عظيمة، وأفقده بساطته وسهولته، وعمومه للبشرية، وفتح باباً واسعاً للفساد والاضطراب والفوضى، كما فعل المرزا غلام أحمد القادياني؛ فقد جعل (المكالمات والمخاطبات الإلـٰهية) شرطاً لصحة الديانة، ونتيجة طبعية للعمل بالأحكام الشرعية، والسعي في العبادة، وزعم أن الدين الذي لا توجد فيه هذه المخاطبات الإلـٰهية، إنما هو دين باطل وميت، بل هو دين الشيطان المؤدي إلى جهنم، وإذا كان أتباع دين لم يتشرفوا بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية، فإنما هم في جهل وغواية[1].

وتهافُت هذا الرأي وسخافته غنية عن الرد عليه، وبسط القول فيه، وحسب القارئ أن الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ الذين كانوا زرع النبوة وغرس القرآن، والجيل المثالي في تاريخ البشرية، وعلى أكتافهم قام الإسلام، لم يدّعوا هذه (المكالمات والمخاطبات) ورؤية الباري تعالى بالعين أو القلب، ولم ينسب التاريخ إليهم ذلك، ولم يُعرف التنافس فيه أو الحرص عليه، أو التأسف على فواته، فكيف بمن جاء بعدهم، ولم يبلغ شأوهم في الدين والعلم[2].

وقد لوحظ في التاريخ مراراً أن كل دعوة متطرفة قامت على مثل هذه الدعاوئ والافتراضات والتجارب الشخصية، لم تفد إلا إنشاء طائفة متطرفة تنشق عن المسلمين وتنابذهم، وقد تُكَفّرهم، وتتحول على مرّ الزمان ديانة مستقلة، وتصبح مشكلة جديدة في المجتمع الإسلامي والإنساني تعيي كبار العقلاء والقادة

= وعزيمة، واستعداد باطني عظيم، وكان له شأن رفيع في التأثير في النفوس والقلوب، والدعوة إلى الله، وإيثار مرضاته على غيره، والزهد في الدنيا وأسبابها، والهجرة في الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه شُبِّه له في فهم ما كان يكشف له أو يسمعه، فادعى أنه (المهدي الموعود) الذي يظهر في آخر الزمان، وغلا في دعوته، واشترط ما ليس بشرط، وكلف المسلمين بما لم يفرضه الله عليهم، ولم يطالبهم به (اقرأ ترجمته في الجزء الرابع من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني).

(١) اقرأ كتاب (براهين أحمدية) للمرزا غلام أحمد القادياني: ٥/ ١٨٣.

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف (القادياني والقاديانية) الباب الرابع، الفصل الثاني.

www.abulhasanalinadwi.org

حلها والتغلب عليها[1]، ولا تخدم مصلحة من مصالح الإنسانية وإصلاح النفوس والدعوة إلى الله[2].

الإلهام الجماعي لمصلحة الإسلام والمسلمين:

وقد أكرم الله بنصيب كبير من (الإلهام الجماعي) الذي لا خطر فيه ولاضرر، وهو أن يلهم عدد من أصحاب النفوس الزكية، والقصد الصالح والعلم الراسخ الصواب فيما تحار فيه الألباب، وتختلف فيه الآراء، والسعي وراء عمل فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وتقوية للدين وذبٌّ عن حوزته، فيشعرون باندفاع إلى القيام بهذا العمل، لا يستطيعون له قهراً ولا دفعاً، وكأنهم مضطرون إلى ذلك محاسبون عليه، فيبذلون في ذلك النفس والنفيس، ويهجرون في سبيله راحاتهم ولذاتهم ويرون في تحقيقه أكبر سعادة وأعظم لذة.

وقد يكون ذلك بعدد قليل كما وقع في قضية الأذان لعبد الله بن زيد بن عبد ربه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقد توافقت رؤياهما، ولُقِّن كل واحد منهما كلمات الأذان في المنام، ووافق عليه رسول الله ﷺ واستحسنه، فشُرع الأذان الذي ينادى به للصلاة في العالم الإسلامي اليوم[3]، وكما وقع في أمر ليلة القدر، فقد رَوى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحرّيها فليتحرَّها في السبع الأواخر»، وقريب من ذلك أمر صلاة التراويح التي ثبت أصلها عن النبي ﷺ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام لئلا تُفرض على أمته فرضاً فتشقّ عليها[4]، وكان المسلمون يصلونها فرادى، فجمعهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عليها، وكانت

---

(١) وقد عالجت حكومة باكستان هذه المشكلة بفصل الطائفة القاديانية عن المسلمين واعتبارها أقلية غير مسلمة، رسمياً، وهذا عند كتابة هذه المقالة.

(٢) اقرأ تاريخ الحركات الهدامة في الإسلام وفي الديانات الأخرى.

(٣) اقرأ الحديث الطويل الذي رواه أبو داود والترمذي والدارمي وابن ماجه.

(٤) اقرأ ما رواه البخاري، عن عائشة رضي الله عنها في (باب فضل من قام رمضان).

www.abulhasanalinadwi.org

إشارة عمر على ذلك إلهاماً من الله وتوجيهاً منه، فكان في ذلك خير كثير، وألهم الله المسلمين المحافظة على هذه الصلاة بجماعة، والحرص عليها، وختم القرآن فيها، وكان عاملاً كبيراً من عوامل حفظ القرآن والمحافظة عليه، والسبق فيه، وإحياء ليالي رمضان، ويُرى الفرق واضحاً بين أهل السنّة الذين أخذوا بسنّة التراويح، وبين الطوائف التي أنكرتها، في انتشار حفظ القرآن، وتدارسه والاهتمام به.

وقد يكون ذلك بعدد كبير وجم غفير يستبعد العقل السليم تواطؤهم على الكذب، أو تآمرهم على الشر، فيعود ذلك على الإسلام والمسلمين بنفع عظيم وخير كثير، أو تسد به ثلمة في ثغر الإسلام، أو يزال به وهن يدخل على المسلمين، أو يحقق مقصداً من مقاصد الدين العظيمة، ومن أمثلة هذا الإلهام الجماعي المبارك، الذي أُلهم به عدد لا يحصى كثرة من العلماء الراسخين والعاملين المخلصين جمع القرآن في المصاحف في زمن أبي بكر، وجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول والثاني إلى ما بعدهما، واستنباط الأحكام والاجتهاد الفقهي من القرن الأول إلى عصر المجتهدين وأئمة المذاهب في القرون الأولى، ووضع علم النحو، وعلم القراءات، وأصول الفقه، إلى غير ذلك من العلوم النافعة الضرورية؛ لحفظ سلامة اللغة التي نزل بها القرآن، وصيانة القرآن من اللحن والفوضى، وكتأسيس وتأليف الكتب، وطرق نشر العلم، وغير ذلك مما اقتضته الأحوال، واختلاف الزمان والمكان.

وكالعناية بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، وتبيين غوائل النفس ومكائد الشيطان، والربانية الصافية التي لا تشوبها البدع؛ حتى أصبح ذلك عِلماً مستقلاً، وتخصص له رجال بلغوا فيه درجة الاجتهاد، واعتبروه أكبر عبادة وأعظم جهاد، فأحيا الله بهم مَوات القلوب، وشفى بهم أَعِلاَّء الأرواح، ونشطوا في الدعوة إلى الإسلام، فانتشر بهم الدين الحنيف في أنحاء العالم البعيدة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان لهم فضل خاص في انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية ـ وخاصة في المناطق التي لم يغزها جيش إسلامي كـ(كشمير) و(بنغال الشرقية) ـ وفي جزر المحيط الهندي، وقارة إفريقيا، وكان لهم فضل كذلك في مقاومة قوى

www.abulhasanalinadwi.org

الباطل وكلمة حق عند سلطان جائر، ومواجهة الزحف الأجنبي[1]. وكالرد على الفِرق الضالة، والفلسفات الإلحادية المثيرة للشكوك والشُّبه، الناشرة للاضطراب في العقيدة والوهن في العمل، وقد تجرد لذلك خيار المسلمين علماً وذكاء، ومقدرة علمية وقوة إيمان، فكان كل ذلك إلهاماً من الله، تكرم به جماعة كبيرة من المسلمين في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي، وفي كل مركز من مراكز العلم والحضارة، فكان دليلاً على عناية الله بهذه الأمة التي هي آخر الأمم وأمل الإنسانية، وعلى مكانتها من الله، وهذا الإلهام الذي لم ينقطع، والمدد الإلهي الذي لم يتخلف، دليل ساطع على ختم النبوة وانقطاعها بعد محمد ﷺ، لا يوجد له نظير بهذا الوضوح والاستمرار في الأمم السابقة، إذ لم تكن في حاجة إليه، فقد كانت سلسلة النبوة مستمرة، والنبوة باقية.

التفريق بين المسلمين:

إن البلبلة الفكرية والاضطراب العظيم الذي تحدثه هذه النبوءات الكثيرة المزعومة، وما يؤول ذلك إلى تفريق بين المسلمين وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية، يبعث في كل قلب مسلم وحشة وقلقاً، ولم يتعود الناس في هذا العصر يتسم بسمة اللادينية والإلحاد، أن يهتفوا بقولهم «أنا الحق»، ولكنه إذا نشأت هنا في العالم الإسلامي (هواية) التنبؤ بتأثير المرزا غلام أحمد القادياني، ودعاته المتحمسين، وظهر رجال في مختلف أرجاء العالم الإسلامي يرفعون راية (النبوة)، ويُكفِّرون الذين لا يقبلون دعوتهم كنتيجة حتمية للنبوة، فلا ينتج ذلك سوى بلبلة فكرية وفوضى دينية، واصطدام بين الأفكار، ويتوزع العالم الإسلامي بين معسكرات مختلفة، وتقع هذه الأمة التي جاءت لمحو كل عصبية من اللون والجنس والوطن، وإنشاء الأخوة الإسلامية، فريسة التفريق والتفكير، والعصبيات الدينية[2].

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك في فصل (بطولة وكفاح، لا بطالة واستسلام)، في كتابنا «ربانية لا رهبانية»، طبع دار الفتح، بيروت، ١٣٨٨هـ.

(٢) وقد كان العلاّمة الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف، دقيق النظر جداً في قوله المأثور: «إننا نعتقد أنَّ الإسلام دين أوحى الله به؛ ولكن وجود الإسلام كمجتمع أو أمة=

www.abulhasanalinadwi.org

لقد أحس بخطر القاديانية الأستاذ محمد علي اللاهوري[1] وأبداه في إحدى مقالاته بكل قوة ووضوح، غير أنه لم يفكر أن فاتح هذا الباب إنما هو إمامه المرزا غلام أحمد، وأنه هو أول شخص عرض فكرة استمرار النبوة كحركة ودعوة؛ يقول الأستاذ محمد علي يناشد أهل البصيرة والإنصاف:

«أنشدكم بالله، إن صح الاعتقاد بأن النبوة لم تنقطع وأن الأنبياء لا يزالون في غدو وروح إلى هذا العالم، كما صرح بذلك محمود أحمد[2] في (أنوار الخلافة) أفلا تزال هذه الطوائف التي تعدُّ بالآلاف تُكفِّر بعضها بعضاً، وتغيب الوحدة الإسلامية؟ نفرض أن هؤلاء الأنبياء يبعثون في الجماعة الأحمدية (القاديانية) وحدها، أفلا تمزق بذلك الجماعة الأحمدية نفسها، إنكم لا تجهلون السنن القديمة، وتعرفون كيف كان الناس ينقسمون بين موافق ومعارض على مبعث نبي، إن الله الذي قضى بتوحيد شعوب العالم وأممه، أيمزق المسلمين ويقطعهم إرباً إرباً، يكفِّر بعضهم بعضاً، وتتوتر بينهم العلائق والصلات، وتصبح الأخوة الإسلامية أثراً بعد عين؟ اعلموا إذا كان الله قد وعد لهذا الدين بأن يظهره على الدين كله ـ وهو لا يخلف الميعاد ـ فإن الإسلام لا يُبتلى بهذه المحنة، ولا يأتي يوم ينفرد كل نبي بحزبه، وتتوزع المسلمين دعوات مختلفة، ورايات مختلفة ومراكز روحية مختلفة، ويصبح كهنتها محتكرين للإيمان والنجاة، يُكفِّرون سائر المسلمين[3].

= يتوقف على شخصية محمد ﷺ. واعتقاد أنه كان آخر الرسل وخاتم النبيين، وهو خط التحديد الدقيق بين الدين الإسلامي والديانات الأخرى.

(١) هو أمير الفرع اللاهوري الذي يسمى (الجماعة الأحمدية) اللاهورية وهو صاحب ترجمة القرآن الإنجليزية المعروفة؛ وتفسير (بيان القرآن) ومؤلفات كثيرة، وهو لا يقول بنبوة المرزا غلام أحمد، ويُؤوِّل ما صدر عنه من تصريحات في هذا الصدد، إنما يعتقد أنه كان (المسيح الموعود)، ومجدد القرن الرابع عشر الأعظم، والمصلح الأكبر.
اقرأ لمعرفة آرائه وتأويلاته في القرآن؛ الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب (القادياني والقاديانية).

(٢) هو نجل المرزا غلام أحمد القادياني، وخليفته الثاني.

(٣) رد تكفير أهله قبله. لمحمد علي، ص٣٤.

www.abulhasanalinadwi.org

والحاصل أن عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات، وتعليم البشر العقائد والشرائع عن طريق الوحي والملائكة والروح الأمين، وما تتوقف عليه نجاتهم في الآخرة، على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي الهاشمي القرشي ـ عليه ألف ألف صلاة وسلام ـ وانقطاع النبوة والأنبياء بعده، وكونه خاتم الرسل، وموضح السبل، وإمام الكل، من أجلّ مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمة، ورحمة بالإنسانية الممزقة وترفيه لها، وتوفير لجهودها وطاقاتها، من أن تضيع في غير سدى، وفيما لم تكلفه، وجامعة لشمل هذه الأمة المحمدية، حافظة لوحدتها وأصالتها وقوتها، باعثة لثقتها بنفسها، وصلاحية دينها وخلوده، واعتبارها نفسها مسؤولة عن اتجاه العالم وموقفه ومصيره، حافزة على الإصلاح والتجديد، والجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان، وهو الأساس المتين الذي يقوم عليه البناء الإسلامي، كمجتمع وأمة، ورسالة خالدة.

ألدُّ أعداء الإسلام:

لذلك كان ألد أعداء الإسلام وأدهاهم وأمكرهم، وأضر على الإسلام والمسلمين، وأنفع لأعداء الإسلام والكائدين له من ادَّعى نبوة جديدة ـ في أي مفهوم من مفاهيمها ـ أو دعا إليها، وتولى كبرها.

وصدق الله العظيم:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣ ـ ٩٤].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الفهـــرس

الموضوع — الصفحة

مقدمة الطبعة الرابعة ٥
كلمة المؤلف ٧

المحاضرة الأولى
النبوة . . حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنية

حديث من وحي المكان ١١
مهمة الجامعة الأساسية ١١
حاجة العصر إلى هذا الحديث ١٢
النظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن ١٣
حديث أثير حبيب ١٣
صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية ١٤
تصوير النبوة والمثل الحكيم ١٥
الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة ٢٠
ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها ٢١
عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي ٢٣
انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي ٢٣
مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء ٢٣
مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم ٢٤
لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول ﷺ ٢٦

www.abulhasanalinadwi.org

الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم ٢٦
طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة ٢٦
مهمة الأنبياء في هذه المدينة ٢٨
أهم الواجبات وأقدس المهمات ٢٨
العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية ٢٩
بقايا النبوة وآثار دعوتها وجهادها ٣٠

المحاضرة الثانية
سمات النبوة وخصائص الأنبياء

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء ٣١
الحاجة إلى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية ٣٢
الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين والحكماء والمصلحين ٣٢
الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع ٣٤
إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له ٣٦
الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر ٣٨
فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته ٣٩
ما يجب أن يكون الركن الأساسي في الدعوات الدينية وشعار الدعاة
في جميع العصور ٤٠
وصية للشباب والدعاة والكتّاب ٤٠
عقيدة الآخرة والاهتمام بها في سيرة الأنبياء ودعوتهم ٤٢
الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح ٤٣
سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل ٤٤
مناط الأمر: الثواب والجزاء في الآخرة ٤٥
سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزهد وإيثار الآخرة على الدنيا ٤٥
الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية ٤٦
مطالبة بالإيمان بالغيب ٤٧
البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة ٥٢

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثالثة

أئمة الهدى وقادة الإنسانية

عبث القادة والزعماء بالإنسانية ٥٧
الحاجة إلى الأنبياء المعصومين عن الخطأ ٥٨
أمانة وإخلاص ٥٨
أمان وضمان للأتباع ٦٠
حقيقة العصمة وطرقها ٦٠
جديرون بالطاعة والاتباع ٦١
محط العناية والرضا ٦٢
سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع وحقيقة الشعائر ٦٢
مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة ٦٣
حضارة إبراهيمية محمدية ٦٤
خصائص هذه الحضارة وسماتها ٦٤
دعوة القرآن إلى الأنبياء وحثه على تقليدهم ٦٥
الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحب العاطفي ٦٦
تأثير عاطفة الحب وسر تفاني الصحابة في طاعة الرسول ﷺ ٦٧
نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلامي اليوم وتأثير ذلك في الحياة ٦٨
لا فلاح لأمة بُعث فيها النبي إلا في اتباعه وإيثاره ٦٨
وضع العالم الإسلامي والعربي اليوم وسببه ٦٩

المحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلـٰهية والأسباب المادية

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية ٧١
شيء مقصود ومطّرد مستمر ٧١
تشجيع على التجربة وإطماع في رحمة الله ٧٢
سنّة الله مع جميع أنبيائه ٧٣
أعظم تحدٍّ للمادية المسرفة وأكبر ثورة على عبادة الأسباب ٧٤

www.abulhasanalinadwi.org

تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق ٧٦
مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف ٧٧
مماثلة بين قصة يوسف ومحمد ﷺ ٧٨
تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم ٧٨
انتصار مقرون بانتصار الأمة ٧٩
مصدر القوة والثقة والأمل للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين ٨٠
إما الإيمان بدعوة الأنبياء وإما الهلاك والدمار ٨١
لا قيمة للمصالح الفردية والقومية ٨١
التفكير الخاطىء السائد ٨١
سلاح المؤمن ومفتاح النجاح الإيمان والطاعة ٨٢
لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء ٨٣

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

نكبة العصر الجاهلي ٨٥
فقدان العلم الصحيح ٨٥
فقدان الإرادة الخيِّرة القوية ٨٦
فقدان الجماعة التي تنتصر للحق ٨٦
الحاجة إلى طلوع شمس جديدة ٨٦
تعاون الفلسفة والوثنية على إضعاف الإيمان وإضلال الإنسان ٨٧
لا يغير الوضع الجاهلي إلا الإيمان النبوي القوي العالمي ٨٨
الحاجة إلى أمة للإصلاح والكفاح الدائم ٨٩
تأثير البعثة المحمدية ٨٩
مولد عالم جديد ٩٠
تصوير للعصر الجاهلي ٩٠
اتجاه عالمي جديد ٩١
الأمة المحمدية معجزة الرسول ﷺ ٩٢

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة السادسة
مأثرة النبوة المحمدية

أهمية الإنسان ٩٥
أسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها ٩٦
الإنسان فوق كل مساومة وتقويم ٩٦
مأثرة النبوة المحمدية ٩٧
واقع أجمل من الخيال والشعر ٩٧
الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة ٩٨
اللبنات التي قام عليها المجتمع الإسلامي ٩٨
نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب ٩٩
زهد الولاة وتقشفهم في الحياة ٩٩
نموذج إنساني رائع ١٠١
الجيل الإسلامي الأول ١٠٢
تأثير الرسالة المحمدية في الأجيال المتأخرة ١٠٣
بعض تلاميذ المدرسة المحمدية الخالدة وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم ... ١٠٤
إنتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كل الأمم وفي جميع العصور ١٠٨

المحاضرة السابعة
محمد رسول الله ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين (١)

دين يبلغ ذروة الكمال، وأمة تضطلع بأعباء خلافة النبوة ١١١
إعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد ﷺ وانقطاعها بعده ١١١
أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة ١١٣
صفات لا تليق إلا بالنبي الخالد والرسول الخاتم ﷺ ١١٤
القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك؟ ١١٥
صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد ﷺ، وما يتصل به ١١٨
وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضي ذلك ١١٩
عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات، واستغناؤها
عن تطوير وتعديل ١٢١

www.abulhasanalinadwi.org

الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ ١٢٥
سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد ١٣٤
الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة ١٣٥
إجماع الصحابة والأمة الإسلامية على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ،
واستبشاعها ورفضها لهذه الدعوى ١٣٧

المحاضرة الثامنة

محمد رسول الله ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين (٢)

انقطاع النبوة تكريم للإنسانية ورأفة بها ١٣٩
مشكلة كثرة المتنبئين في الديانات السابقة وخطرها على سلامة
العقيدة ووحدة الديانة ١٤١
ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل ١٤٦
حيوية هذا الدين، وقوة توليده، وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين
والمصلحين والمجددين ١٤٧
اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام، وسره ١٤٩
جناية عقيدة استمرار النبوة أو «الإمام المنتظر» على الشعور
بالمسؤولية، وقوة مقاومة الفساد ١٥٠
رحمة بالأمة الإسلامية ومنة عليها ١٥١
الحارس من الفوضى الفكرية ١٥٢
فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية ١٥٣
فتنة المتنبئين الكبرى ١٥٤
فتنة «المكالمات والمخاطبات الإلهية» ورؤية الباري تعالى في الدنيا ... ١٥٥
الإلهام الجماعي لمصلحة الإسلام والمسلمين ١٥٨
التفريق بين المسلمين ١٦٠
ألدُّ أعداء الإسلام ١٦٢
الفهرس ١٦٣

* * *

www.abulhasanalinadwi.org